

ضرب الكليم

محمد إقبال



ضرب الكليم

إعلان الحرب على العصر الحاضر

تأليف
محمد إقبال

ترجمة
عبد الوهاب عزام



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٧٦٥ ٠

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الأردية عام ١٩٣٧.

صدرت هذه الترجمة عام ١٩٥٣.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُنْصَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	إهداء
٩	مقدمة
١٣	مدخل
٢٣	ضرب الكليم
٢٥	إلى القارئ
٢٧	تمهيد
٢٩	١- الإسلامُ والمُسلِمون
٦١	٢- التعليم والتربية
٧٥	٣- المرأة
٧٩	٤- الأدبُ والفنون
١٠١	٥- سياسياتُ المشرق والمغرب
١١٥	٦- أفكار محراب جل الأفغاني

إهداء

إلى جلالة الفاروق^١

رياح العُرب في البِداء سيري وموج النيل في شغفٍ أثيري
عن الفاروق^٢ للفاروق أدِّي بلاغ الدين والمُلك الكبيرِ

* * *

بفطرتنا السيادة والكرامه وفوق جبيننا سطرُ الإمامه
بقلبك فانظرنْ دُنيا جلاها من الفاروق^٢ قلبٌ ذو شهامه

* * *

فمن يكشف له السرَّ اليقينُ يوحدُ ما تُثنِّيهِ العيونُ
كقنديلين قد مزجا ضياءً تألفَ بيننا مُلكٌ ودين

* * *

إذا الإسلامُ قد صدق البلاءُ غُبار طريقه يسمو سماءَ
شرارَ الشوقِ فاحفظ إن تجده فإنك مُطلعٌ منه ذكاءَ

هوامش

- (١) في ديوان «أرمغان حجاز» لإقبال رباعيات عنوانها «الفاروق»، كتبها الشاعر حينما جلس جلالة الفاروق على العرش، وهذه ترجمتها من الفارسية.
- (٢) الفاروق الأول عمر رضي الله عنه.
- (٣) الفاروق عمر رضي الله عنه.

مقدمة

١

نسألك اللهم الإلهام والتوفيق. وبعد؛ فقد يسر الله تعالى منذ عشرة أشهر ترجمة ديوان بياض مشرق الذي نظمته بالفارسية الشاعر الفيلسوف محمد إقبال رحمه الله، وتم طبع الديوان بالعربية في مدينة كراچی حين الذكرى الثالثة عشرة لوفاة الشاعر في شهر نيسان/أبريل سنة ١٩٥١. وقدمت جماعة إقبال الديوان العربي إلى حاكم باكستان العام في احتفال رسمي حاشد.

وكانت ترجمة أحد دواوين إقبال إلى العربية تحقيق أمنية كبيرة للشاعر رحمه الله، واستجابة لأمل قديم في نفسي، وبلوغ غاية حاولت المسير إليها مرات فعوقتني الشواغل. وكان لهذه الترجمة أثر بليغ في نفوس علماء باكستان وأدبائها وساستها، وقبول حسن عند قراء العربية.

٢

دعاني هذا الظفر إلى الاستقامة على الطريق لأترجم دواوين أخرى للشاعر العظيم، وهون عليّ الماضي فيما بدأت، واحتمال المشقة فيما تصدّيتُ له، ودعا كثيراً ممن يعرفني من أهل باكستان إلى أن يتوجهوا إليّ ناظرين ترجمة أخرى. وذكر الديوان الذي هممت بترجمته من قبل، وهو «جاويد نامه» القصة التي بين فيها إقبال كثيراً من أحوال المسلمين وكثيراً من آرائه وفلسفته أثناء رحلة في الكواكب دليله فيها الشاعر الصوفي الكبير جلال الدين الرومي صاحب المثنوي.

وما ترددت في إثثار جاويد نامه بالترجمة بعد «بيام مشرق»، ولكن صديقاً أديباً من محبي إقبال المعجبين به، العارفين بشعره وفلسفته وسيرته، ومن الذين خالطوه كثيراً في حياته، ولم يدخروا جهداً في بيان دعوته والتعريف به؛ اقترح عليّ ترجمة ديوان آخر.

قال الصديق الأستاذ أحمد برويز: أرى أن تترجم «ضرب كليم»؛ لأنه آخر ما نشر المؤلف وآخر ما نظم إلا ديوان أرمغان حجاز الذي نشر بعد وفاته، وهو، إلى هذا، تتجلى فيه فلسفة إقبال القوية، ودعوته الصريحة، في أمور معينة جعلها في الديوان فصولاً، ثم جاويد نامه منظومة واحدة طويلة عميقة يحتاج قارئها إلى زاد كثير من الفلسفة والتاريخ، ولا يتيسر إدراك مراميها إلا لقارئ أوتي حظاً موفوراً من العلم والأدب، ومترجمها لا يبلغ غايته حتى ينتهي منها؛ على حين أن مترجم ضرب كليم ينهي عملاً بترجمة كل قطعة فيه، ويبلغ غاية كلما انتهى من فصل، وهو بعد هذا وذاك، أقل أبحاثاً، وأيسر كلفة.

وما زال الصديق يوالي الحجج، حتى وافقته على أن أقدم «ضرب كليم» على «جاويد نامه» مؤخراً هذه القصة مرة أخرى، والله المستعان.

٣

رأينا أن نجتمع على قراءة الكتاب، واستقصاء معانيه، والتعمق في عباراته وإشاراته، قبل بدء الترجمة.

وتواعدنا أن نجتمع في دار السفارة المصرية من مدينة كراچی، ونوالي الاجتماع كل أسبوع مرتين أو ثلاثاً حتى نفرغ من الديوان.

وحرصنا على ألا نتفرق عن مجلس حتى نتفق على موعد المجلس التالي؛ خشية أن تصرفنا الأشغال عن هذه المجالس، وكانت أفئدتنا تهفو إليها، وذكرها تحبب إلينا أن نسارع إليها.

كنت أنا والأستاذ أحمد برويز والأستاذ سيد عبد الواحد مدير الغابات في باكستان، وهو أحد المؤلفين في سيرة إقبال وفلسفته، أركان هذا المجلس، وكان يختلف إلينا إخوان من محبي إقبال منهم من يشهد مجالس متتابعة، ومنهم من يشهد جلسة أو جلستين ثم يغيب أو ينقطع، فكانت الحلقة تضيق وتتسع.

وكنا بين الحين والحين ندعو إلى وليمة نستكثر فيها من أعضاء جماعة إقبال في كراچي، وندعو إليها رئيسها الفاضل نذير أحمد وزير الصناعة حينئذ.

وكان الأخ أحمد برويز شيخ المجلس، يتولى القراءة والشرح، ويفيض في الإبانة عن آراء إقبال، ويستطرد إلى كلام في الشعر أو الفلسفة، وإلى وصل كلام إقبال بالقرآن الكريم.

وقد سميت المجلس «مجلس إقبال» أو «مجلس الإقبال» وسميت حاضريه «دراويش إقبال» أو «قلندران إقبال» وسميت أحمد برويز شيخ الدراويش أو «شيخ قلندران إقبال».

شرعنا في القراءة عقب عيد الفطر من سنة ١٣٧٠هـ، فلما فرغنا كتبت في بياض بالصفحة الأخيرة من الكتاب:

تمت القراءة عشاء يوم السبت خامس المحرم سنة ١٣٧١هـ/٦ أكتوبر سنة ١٩٥١م. والحمد لله أولاً وآخراً ورحم الله إقبالاً.

فقد قرأنا الكتاب في ثلاثة أشهر، ولا جرم أننا شغلنا عن المجلس أحياناً فلم نتابع مجالسنا على ما قدّرنا.

وشرعت في الترجمة ليلة الاثنين حادي عشر شوال سنة ١٣٧٠هـ/١٦ تموز ١٩٥١م، فلما فرغت منها كتبت تحت السطور التي أرخت فيها إتمام القراءة:

يسر الله الفراغ من الترجمة عشاء ليلة الأحد ١٨ صفر الخير سنة ١٣٧١هـ/٨ تشرين الثاني ١٩٥٢م.

فقد شغلتنني الترجمة زهاء أربعة أشهر وفرغت منها بعد شهر ونصف من إتمام القراءة.

٤

آثرت أن أطبع الديوان في مصر؛ لأبلغ فيه ما فاتني في بياض مشرق من وضوح الحروف واستكمال الشكل، ولبثت أرتقب سفري إلى الوطن المبارك، فلما بلغته في السادس من كانون الأول/ديسمبر شرعت أبيضّ الديوان وأعده للطبع، بين شواغل وأسفار متوالية، وتولى رقمه^١ ولدنا الفاضل محمود جعفر الجبالي المفتش بمصلحة الضرائب.

ضرب الكليم

ورغبت إليَّ «جماعة الأزهر للنشر والتأليف» أن يكون الديوان من مطبوعاتها فسلمته إليها شاكرًا، ووددت أن ينجز طبعه وأنا في مصر؛ لأنظر في تصحيحه، ووضع كلمة مكان أخرى أثناء التصحيح، ولكن لم يكن بد من العودة إلى باكستان قبل طبع الكتاب. فتولى الإشراف على الطبع وإرسال النماذج إليَّ بالبريد الجوي، الأستاذ محمود الجبالي أيضًا جزاه الله خير الجزاء.

إن من سعادة الجد أن أحقق أمنية الشاعر الفيلسوف العظيم، وأزيد في ثراء لغة القرآن بترجمة بعض دواوين إقبال إلى العربية.

ويزيدني غبطة، ويشرح صدري، أن أنشر ديوان ضرب كليم حين الذكرى الرابعة عشرة لوفاة شاعر الإسلام النابغة، كما امتلأت نفسي سرورًا، وقلبي نورًا، حينما نشرت بيام مشرق في الذكرى الثالثة عشرة لوفاته، كم رجوت أن أترجم من دواوين إقبال، ولكن ما طمعت قط فيما يسره الله لي من ترجمة ديوانين في أقل من ثمانية أشهر، ونشرهما في سنة واحدة.

والحمد لله على توفيقه، وهو المسئول أن يوفق ويلهم ويسدد، وهو حسبي ونعم الوكيل.

مدينة كراچي

١٥ آذار سنة ١٩٥٢م

١٩ جمادي الثانية سنة ١٣٧١هـ

هوامش

(١) وضعت كلمة مرقم لما يسمى الآلة الكاتبة، فاستعملت كلمة راقم لمن يسمى كاتبًا على الآلة الكاتبة، ورقم بدل كتب على الآلة الكاتبة، وقد استعملت هذه الكلمات في جامعة فؤاد الأول فلعل استعمالها يشيع.

مدخل

«ضرب الكليم»

بقلم عبد الوهاب عزام

ديوان يشتمل على آراء ونظرات في الناس؛ جماعاتٍ ووحداً، وفي الدين، والتربية، والفنون، والأدب، والسياسة، فهو أدخل في الفكر والفلسفة ولكن فيه من العاطفة والخيال ما يدخله في الشعر.

وكل حقيقة في هذا الكون أهل أن تدخل في الشعر، إن صيغتها عاطفة الإنسان، أو صوّرها خياله، وموضوعات الشعر تتوالى من محيط دائرته إلى مركزها؛ بعضها عند المحيط يدخل في الشعر قليلاً، ويجاور ما هو خارج الدائرة، وبعضها أدخل في الدائرة، وهكذا تتوالى إلى مركز الدائرة، على قدر نصيب الموضوعات من العاطفة والخيال. فالكلام في ضرب الكليم شعر يقارب الحقائق المجردة أحياناً، ويمعن في الشعر أحياناً، ولكنه في جملته أقرب إلى المحيط منه إلى المركز.

ومن أجل هذا لقيت في ترجمته عناءً أكثر مما لقيت في ترجمة بياض مشرق؛ إذ حرصت على ألا تذهب الترجمة بقسمات الشعر فيه، وألا ينصل بها الخضاب الشعري القليل، وألا يذبل هذا الزهر الصغير بالانتقال من روضة إلى روضة، وألا تضيق الدقائق الشعرية بين لغتين مختلفتين وأسلوبين من البيان متباعدين. والكتاب في جملة ضرب يفجر الماء من الحجر لا موسيقى وغناء كما قال إقبال:

كفاح شديد وضرب شديد فلا تبغ في الحرب عزف الوتر

ومن أجل هذا سماه ضرب الكليم؛ رمزاً إلى قصة موسى حين ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً. فلعل القارئ يقدر حقائقه في معرض من الشعر شفاف أكثر مما يلتمس فيه خيال الشعر وزينه وبهجه، ولعله كذلك يقدر عناء المنشئ والمترجم في عرض هذه الحقائق والإبانة عنها في أسلوب من الشعر الرصين.

(١) فصول الديوان

قسم الشاعر ديوان ضرب الكليم على ستة فصول، وقدم قبلها قطعتين وقصيدة: القطعة الأولى أبيات قدم بها الديوان إلى أمير بهوبال حميد الله خان، والثانية يخاطب فيها القراء، والقصيدة سماها تمهيداً. وهذه فصول الديوان:

- (١) الإسلام والمسلمون (وهو أطول الفصول).
- (٢) التعليم والتربية.
- (٣) المرأة.
- (٤) آداب الفنون الجميلة (وهو ثاني الفصول طولاً).
- (٥) سياسيات المشرق والمغرب.
- (٦) أفكار محراب جل الأفغاني.

وهذه الفصول مؤلفة من قطع صغيرة بين بيتين وعشرة لا تتجاوز العشرة إلا قليلاً. والفصل الأخير منظومة واحدة مقسمة عشرين قسمًا تختلف أقسامها أوزاناً وقوافي، ولكن الشاعر جعلها منظومة واحدة وربط بين أقسامها بأعداد متوالية.

والقطع في الفصول كلها، إن عددنا أقسام الفصل الأخير، مائتان واثنان.
وفي المقدمة أربع قطع.

(٢) فلسفة إقبال

لا بد من كلمة موجزة في فلسفة إقبال تعين القارئ على إدراك مرامي الشاعر.
أساس فلسفة إقبال ما سماه «خودي»: «الذات أو الذاتية».
وقد بين مذهبه هذا في كثير من شعره وخص به منظومة سماها أسرار خودي.
وخلاصة هذه الفلسفة، وما بني عليها، وما يتصل بها من آراء:

- (أ) أن الذاتية جوهر الكون وأساس نظامه، وسر الحياة فيه.
(ب) وأن الذاتية هذه تحيا من تخليق المقاصد، وتوليد الآمال، كما يقول إقبال: «نحن أحياء بتخليق المقاصد ونحن منيرون من شعاع الأمل».
(ج) وأن الذات تقوى بعشق ما تؤمل، وسعيها إليه غير متوانية، وإقدامها عليه غير هيابة، واقتحامها كل عقبة في سبيله؛ كما قال: «وهي بالمحبة أقوى، وأحيا وأضوأ».
(د) والجهاد الدائم، والكفاح المتصل تقوى به الحياة وتزداد وتنير. والإحجام، والتردد والسكون إلى الدعة والخضوع تضعف الحياة وتطفئها.
(هـ) وعلى الإنسان أن يستخرج كل ما في فطرته من مواهب، وأن يعتمد على نفسه، ويظهر ذاته في قوله وفعله، ويحذر التقليد والاعتماد على غيره، وطلب ما عند الناس والغفلة عما في نفسه من كنوز.
(و) بهذا كله تقوى الذات، وقوة الذات هي مقصد هذه الحياة، والشاعر معجب بالقوة في كل شيء؛ القوة الحسية، والقوة المعنوية، وهو بهذا يعجب بالفيلسوف الألماني نيتشه ويذكره كثيراً ولكنه يأخذ عليه أنه عرف العقل لا القلب، والجسم لا الروح، والعلم لا العشق، ويقول عنه: لم يكن أهلاً لنكتة التوحيد، وإنه آمن عقله وكفر قلبه، وإنه بنى موثناً على أسس مسجد.

بل القوة عند إقبال من عناصر الجمال، فإن الجمال لا يكون بغير جلال.
يقول في القطعة التي عنوانها «الجلال والجمال»:

عندي جمال في بهاء أن تُرى في سجدة للقوة الأفلاكُ

ضرب الكليم

ولنغمة من دون نار نفخة ما الحسن إلا بالجلال يُحَاكُ

بل يقول في هذه القطعة: إنه لا يحب أن يعذب بنار غير قوية:

لا أرتضي نار الجزاء ولم تكن وهاجة ولهيبها درَاكُ

(ز) والحسن والقبح، أو الخير والشر من علو الذات وانحطاطها وقوتها وضعفها:

عالم الذات به علو وسفل وبه معرك قُبْح وجمال
في اعتلاء الذات ما يبدو جميل وقبيحُ ما بدا في الاستفال

(ح) والذات المفردة القوية الناضجة تنسلك في الجماعة، ولا تفنى فيها، وقد بين إقبال في ديوانه أسرار خودي كيف يلتئم الواحد القوي في جماعته، وكيف يسعد بهذا الالتئام ويبقى ولا يفنى، ومن إشاراتِه في هذا:

يا من في القافلة سرّ رفيقاً وكن وحيداً.

ويقول في ضرب كليم في القطعة التي عنوانها «الرجل العظيم»:

هو في المجمع خال ومن الحشد طليق
مثل شمع الحفل، في الـ حفل وحيد ورفيق

(ط) والإنسان أعظم الكائنات، وكل شيء في العالم مسخّر له كما في القرآن الكريم:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَأَتَاكُم مِّن كُلِّ مَّا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾.

(ي) والإنسان حر غير مجبر، ومخير غير مسير، عزمه دليل على القضاء أو مشير عليه، والمؤمن الحر هو مقياس الصلاح والفساد والبقاء والفناء في هذه الدنيا، بل في الدنيا والآخرة:

فيه عزم على القضاء مُشير وهو في العالمين كالميزان

النبات والجماد في قهر الطبيعة ولكن المؤمن الحر لا يقيدته إلا إطاغته أحكام ربه:

إن النبات وإن الجامدات لها من القضاء قيود ذات إحكام
والمؤمن الحر لا شيء يقيدُه لكنْ لخالقه في قيد أحكام

(ي-أ) الحضارة الحديثة: ويرى إقبال أن الحضارة الأوروبية مادية، لا روح لها ولا قلب، ويشتدُّ في نقدها، ويذكر فلاسفتها فيقبل من آرائهم قليلاً ويردُّ كثيرًا، ويرى أن في الإسلام وحضارته سعادة البشر والتأليف بينهم، وجمعهم على شرعة الحق إخوة متحابين متعاونين.

(ي-ب) فلسفته في هذا الديوان: تتجلى فلسفة إقبال، في الذات وما يتصل بها، ونظره إلى الحضارتين الإسلامية والأوروبية وسائر آرائه، في كل فصول هذا الديوان، حتى الأدب والفنون الجميلة.

الشعر فيه من الحياة رسالة أبدية لا تقبل التبديلا
إن كان من جبريل فيه نغمة أو كان فيه صور إسرافيل

* * *

صمت طير الصبح أولى من غناء إن سرى في الرّوض باللحن ذبول

والغناء إن أدى إلى ضعف أو خور فهو حرام:

إن سرت في اللحن دعوة موت حرّم النائي عندنا والربابُ

والمصور ينبغي أن يصور الحياة وأن يطبع ذاته على الطبيعة لا أن يحاكيها:

مقصد الفن في الحياة لهيب
يا خبيراً بفنه فيه تمت
أبدى فما وميض الشرار؟
صنعة العصر والعصور الخوالي
أرنا الذات فوق هذي المجالي
كم ترى من طبيعة وتريها؟

(٣) تفسير اصطلاحات في الديوان

الفقر

يشيد إقبال بالفقر في مواضع كثيرة من شعره في هذا الديوان وفي غيره، ويعدّه مفتاح كل خير والوسيلة إلى كل سُودد، والمقتحم كل عقبة.
ومن الأبيات التي ذكر فيها الفقر في هذا الديوان في القطعة: «على ذكر الإذن بحمل السيف»:

أيها المسلم تَدري اليوم ما
هو مصراعُ من البيت الذي
أرى مصراعَه الثاني في
قيمة الفولاذ والعَضْبِ الذَّكَرِ
مضمراً فيه من التَّوْحِيدِ سر
سيف فقر تحتويه كَفُّ حر

وقوله في القطعة «الفقر والملكية»:

الفقر يمضي بلا سلاح
في حومة الحرب كالرجوم

وقوله في قطعة «السلطان»:

تعلّم فألف مقام وشأن
لفقر بدا فيه روح القرآن

وقوله في قطعة «الإمامة»:

يُمرُّ عليك من فقر مَسْنَأً
فيطبع منك سيفاً للمنايا

وقوله في القطعة «نكتة التوحيد»:

أَيُّ ملك مقام فقر، ولكن تؤثر الذل مدعناً، ما احتيالي

وقوله في القطعة التي أولها «متاعك في الحياة فنون علم»:

وما إن ذل قوم قد أعدوا حماس العشق والفقر الغيور

ويتبين من التأمل في هذه الأبيات أن الفقر في لغة إقبال ليس عدم المال أو قلته، ولا هو حاجة إلى ما يعيش به الإنسان ويعتز به من متاع الدنيا، فماذا يعني إقبال حين يذكر الفقر ويشيد به ويبالغ في إكباره؟ الذي أدركته من كلام الشاعر أن الفقر الذي يعنيه هو خلاص النفس من قيد التملك أو الطمع، ومضيها عاملة مقدمة لا يطغيها وجدان ولا يذلها حرمان، وربما يملك الفقير قناطيرَ من الذهب وربما يكون ملكاً مسلطاً لا يُعجز سلطانه مال أو متاع.

وليس هذا المعنى بعيداً عما فسّر به بعض الصوفية الفقر. ففي رسالة القشيري: سئل يحيى بن معاذ عن الفقر، فقال: «حقيقته ألا يستغنى إلا بالله».

وقال الشبلي: أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم، ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يوم ما صدّق في فقره. وفي الرسالة أيضاً: وقيل: صحة الفقر ألا يستغني الفقير في فقره بشيء إلا بمن إليه فقره.

وفي كتاب عوارف المعارف للسهروردي: وقال الكتاني: إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى؛ لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر. فترى أن الفقر في هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال؛ ولكن ألا يرتبط الإنسان بما أدرك أو بما فات، أعني: ألا تكون الدنيا في قلبه؛ وإن كانت في يده.

قلندر

يعني به إقبالُ الإنسانَ الذي لا يصل نفسه بمال ولا أهل ولا دار.
وهو في الأصل اسم رجل ذهب هذا المذهب وأحدث طريقة كان سالكوها يديمون
السفر لا يلبثون في مكان، ولا يقيدهم ملك ولا أهل ولا وطن، ويحلقون رءوسهم ولحاهم.
وسمي سالك هذه الطريقة: قلندراً؛ باسم صاحب الطريقة.
وقد رأيت أن أبقى اللفظ في الترجمة؛ لأنه علم في الأصل، وجعلته أحياناً وصفاً
وأحياناً نسبت إليه فقلت: القلندر والقلندري.

الجنون

يكرر الشاعر ذكر الجنون في هذا الديوان؛ ففي القطعة التي أولها:

إلى عصابات العرب ما أنا منتمٍ ولا أنا هندي ولا أنا أعجمي

يقول:

فلست أرى في بيدك اليوم جنّة تشبُّ بهذا العقل نار التقدم

وفي القطعة التي أولها:

متاعك في الحياة فنون علم

يقول:

ومزّقتُ الجيوبَ وأنت خال جنوني — لا ألومك — في قُصور

وفي القطعة، «يا شيخ الحرم»:

في جنوني لك أسرار بدت فاجزني يا شيخُ عن هذا اللمم

وفي القطعة التي عنوانها «المدرسة»:

أبعدَ الدرس عن حماك جنوناً قال للعقل: لا تَلُذْ بنقاش

وفي القطعة «فلسفة»:

إن في حلقة المجانين عقلاً في شرار يرى لهيباً مُضِيّاً

وظاهر أن إقبالاً يعني بهذا الجنون الحماسَ والإقدامَ وأداء الواجب دون تردد، وفي غير حساب للمشقة والربح والخسارة، فهو قريب من العشق الذي يذكر في مقابلة العقل.

وكأنه يقول: إن هذا الإقدام يَعُدُّه الناس جنوناً، ونحن نحب هذا الجنون.

ضرب الكليم

فِطْرَةُ الْحُرِّ لَا تُطَيِّقُ مُقَامًا فَأَلْفِ السَّيْرِ دَائِبًا كَالنَّسِيمِ
أَلْفُ عَيْنٍ تَشْقُ صَخْرَكَ فَاضْرِبْ بَعْدَ غَوْصٍ فِي «الذَّاتِ» ضَرْبَ الْكَلِيمِ

إلى القارئ

إذا لم تُصب في الحياة النظرُ فليس زجاجُك كُفءَ الحجر^١
كِفاحٍ شديدٌ، وضربٌ شديد فلا ترجُ في الحرب عَزْفَ الوتر
مَعِينُ الحياة دماءُ القلوب ولحنُ الدِّمَا لا المياهِ الفِطَر^٢

هوامش

(١) أنت بالنظر الصائب صلب تطيق الصدام في الحياة، وإن لم يصب نظرك كنت كالزجاج لا تقوى على الصدام.

(٢) لحن المياه يستخرج من أوان تصف ويوضع فيها الماء مقادير مختلفة على نسب محددة، ويضرب عليها، وهذه تسمى «جل ترك» أي لحن الماء، فقال الشاعر: إن الفطرة لحن دم لا لحن ماء، يعني أن أنغامها تنبعث من دماء الناس لا من المياه.

تمهيد

١

يَقْظَةُ «الذات» لا أراها بِدَيْرٍ لا ولا تُجْتَلَى لدى المِحْرَابِ
إِنْ رَوْحَ الشُّعُوبِ فِي الشَّرْقِ غَافٍ من سموم الترياق، رهنُ غِيَابِ^١
إِنْ تَضِقَ بِالْجِهَادِ فِي الْأَرْضِ ذَرْعًا فحرامٌ مسراك فوق، السحابِ^٢
ليس من خيفة الممات نجاة إِنْ تَرِ «الذات» هيكلاً من ترابِ^٣
ليس يُخْفِي صرُوفَه الدهرُ لكنْ لك قلبٌ وناظرٌ في حجاب
قد مُنِحَتْ الهشيمَ فِي آسِيَا إِذْ أنْ ناري حديدة في التهابِ^٤

٢

ذَنْبُ إِقْبَالِ الْبَيَانِ وَإِنْ كَانَ شَبِيهَ الزَّمانِ نَزَرَ الْوَصَالِ^٥
هَاجَ أَنْغَامُهُ عَكُوفًا عَلَى الْخَشِ خَاشَ مَوْتِي، إِلَى طَلَابِ الْمَعَالِي
فَمَهِيضُ الْجَنَاحِ آلِفُ دَارٍ قَدْ رَنَا الْيَوْمَ لِلْفَضَاءِ الْعَالِيِ^٦
فَعْدَاهُ التَّغْرِيدُ فِي الْأَسْحَارِ
وَحَنِينٌ وَمُتَعَةُ الْأَبْصَارِ^٧

هوامش

- (١) الترياق: الأفيون.
- (٢) يقول: إن لم يستطع الإنسان المجاهدة على هذه الأرض، فاشتغاله بالفلك وما وراءه حرام.
- (٣) يرى إقبال أن الحياة الخالدة بقوة الذات، فمن حسب ذاته ترابًا كالجسم لم يخلص من خشية الموت.
- (٤) ناري شديدة الالتهاب فأنا قادر على إحراق هشيم آسيا أي أممها التي هي كالهشيم أي إزالة مفاسدها وإعدادها للحياة.
- (٥) إقبال قليل المخالطة للناس ولكن بيانه سائر فيهم.
- (٦) إقبال دعا إلى طلاب المعالي العاكفين على الأفيون حتى طمحت الطير الداجنة كسيرة الجناح إلى عنان السماء لتطير.
- (٧) دعاء على إقبال بأن يحرم مما يحب من التغريد ... إلخ؛ جزاء إيقاظه الغافلين.

الفصل الأول

الإسلامُ والمُسلمون

(١) الصبح

لكنَّما الصبحُ الذي ارتجَّتْ له
يُدعى بيومٍ أو غدٍ في الأزمنِ
ظُلُمُ العوالمِ، من أذانِ المؤمنِ

(٢) لا إله إلا الله¹

مُسْتَسِرٌّ في الذاتِ معنًى بعيدُ
سيفُ الذاتِ قاطعُ غيرِ ناپٍ
عصرنا يبتغي خليلاً حَطوَمَا
إن دنياك مَوْتَن لا تصدِّقُ
في متاعِ الغرورِ تسعى وتبغي
يا أسيرِ الخسارِ والربحِ ينسى
مالُ دنياك والبنونُ خداعُ
هي أصنامُ واهمٍ قد براها
حبسِ العقلِ في مكانٍ ووقتِ
لا زمانٌ ولا مكانٌ فحطَّم

سرُّه لا إله إلا الله
شَحَذُهُ لا إله إلا الله
وُثْنُهُ. لا إله إلا الله²
زوره. لا إله إلا الله
ربحه! لا إله إلا الله
نفسه! لا إله إلا الله
كله. لا إله إلا الله
وهمُّه. لا إله إلا الله
كفرُّه. لا إله إلا الله
غلُّه. لا إله إلا الله

(٣) الاستسلام للقدر

يقول إقبال في هذه الأبيات: إن المسلمين احتجوا بالقرآن في القصور عن السعي، ومن هذا القرآن نفسه ملك المسلمون الآفاق، وقد ركنوا اليوم إلى القدر وكان عزمهم من قبل قدراً، والحق أن العبودية بدلت النفوس فرأوا حسناً ما كان عندهم قبيحاً.

وَبِالْقُرْآنِ قَدْ مَلَكُوا الثُّرَيَّا	مِنَ الْقُرْآنِ قَدْ تَرَكُوا الْمَسَاعِي
وَكَانَ زَمَانُهُمْ قَدَرًا خَفِيًّا	إِلَى «التقدير» رَدُّوا كُلَّ سَعْيٍ
فَمَا كَرِهَوْهُ صَارَ لَهُمْ رَضِيًّا	تَبَدَّلَتِ الضَّمَائِرُ فِي إِسَارٍ

(٤) المعراج

الذرة التي يملؤها الشوق تعلو على الشمس والقمر، والدراجة إذا ملأ صدرها الحماس قاتلت الصقر، فإنما القوة الحق قوة الروح، لا شيء يستعصي عليها.

وَذَرَّةٌ طَارَ فِيهَا الشَّوْقُ صَاعِدَةً	تُغَيِّرُ فِي عَرَصَاتِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
يَا رِفْقَةَ الْمَرْجِ! تَلْقَى الصَّقْرَ مُقَدِّمَةً	دُرَّاجَةً تَمْلَأُ الْأَنْفَاسَ مِنْ شَرَرِ
الْمُسْلِمِ السَّهْمِ، وَالْأَفْلَاكُ غَايَتُهُ	سَرَائِرُ الرُّوحِ فِي الْمَعْرَاجِ فَادْكُرْ ^٣
جَهَلْتَ «وَالنَّجْمُ» أَسْرَارًا فَلَا عَجَبَ	مَا زَالَ مَدُّكَ مُحْتَاجًا إِلَى الْقَمَرِ ^٤

(٥) إلى سيد مصاب بالفلسفة ...

لو لم تَوَلَّ «ذَاتَكَ» النسياناً	لَمْ تَحْمِلَنْ زُنَّارَ «بَرْجَسَانَا» ^٥
أصداف «هكيل» من الخوالي	طَلَسَّمُهُ جَمِيعُهُ خِيَالِي
فكيف صاحِ تَحَكُّمُ الْحَيَاةِ	وكيف تجتاز الزمانَ «الذات»؟
وطلَّبُ الْإِنْسَانِ لِلثَّبَاتِ	وقصدُهُ دَسْتُورُ ذِي الْحَيَاةِ؟
يُحوِّلُ الدجى إلى الإشراقِ	أَذَانُ مُؤْمِنٍ نِدَا الْآفَاقِ

وإنني في الأصل سُومناتي
وأنت من أولاد هاشمي
في عَصْبِي فلسفةُ الأشياءِ
أحاط إقبالُ بها تفصيلاً
عاقبةُ العقلِ إلى شَتَاتِ
وَنَغْمَةِ الأفكارِ دونَ صَوْتِ
الدينِ في حياتنا تقويمِ
«قلبِكَ فاربط بالهَدْيِ المحمديِّ
إن تك بالطريق غيرِ داري
إلى مَناءَ سَلَفِي واللاتِ^٦
وطينتي من نَسْلِ بَرْهَمِيٍّ
قد مُزِجَتْ بطينتي ومائي
وإن يكن عرفانهُ قليلاً
فلسفةُ بَعْدُ من الحياةِ
لِلذَّةِ الأعمالِ حادي الموتِ
الدينِ أحمدُ وإبراهيمُ
«أبا عليٍّ»، اتركنْ يا ابنِ عليٍّ
فالقُرشيَّ اتبعه لا البخاري»^٧

(٦) الأرض والسما

صاحِ عَلِّ الذي رَأَيْتَ ربيعاً
سالكِ النهجِ! كلَّ حينِ شُنُونُ
رُبِّ ما خِلْتَهُ بدنياك أَوْجاً
هو في أعْيُنِ خريفِ الزمانِ
لا تفكّرْ في الربحِ والخسرانِ
هو أرضُ لعالمٍ غَابَ ثانٍ

(٧) اضمحلل المسلمون

إن كان ذا الذهبِ الذي
فالفقرُ صاحِ مُبَسَّرُ
شُبَّانُ قومي لو تحلَّوْا
لم تُلَفَ صَعْلَكْتِي أَقْلُ
الأمرِ ليس كما زعمتَ
فزعمتَ أن طَمَاحه
إن كان في الدنيا بدا
فمن التصعلِكِ قد بدا
يَقْضِي الحوائِجَ في الدُّنَى
ما لا يُيَسِّرُهُ الغِنَى
بالشجاعةِ ديدنا
من المملوكِ تَصَوُّنا
وقد وصفتَ المؤمنا
من قِلَّةِ المالِ انثنى
لي جوهراً فيه سَنا
لا بالخزائنِ والقُنَى

(٨) العلم والعشق

قال لي العلمُ غُرُورًا: إنما العِشْقُ جنونٌ
قال لي العِشْقُ مجيبًا: إنما العلمُ ظَنِينٌ
لا تكن سوسَ كتابٍ يا أَسِيرًا للظنون
فمن العِشْقِ شُهوْدٌ
ومن العلمِ حجابٌ
من لهيبِ العِشْقِ ثارتْ ثورَةٌ في الكائناتِ
وشهوْدُ «الذاتِ» للعِشْقِ وللعلمِ الصفاتِ
ومن العِشْقِ ثباتٌ وحياءٌ ومماتِ
عَلِمْنَا سُؤْلُ جَلِيٍّ
عِشْقُنَا خَافِي الجوابِ
معجزاتُ العِشْقِ مُلْكٌ زَانَهُ فَقْرٌ وديِنٌ
وعبيدُ العِشْقِ أَدْنَا هم له عرشِ مكينِ
ومن العِشْقِ زَمَانٌ ومكانٌ ومكينٌ^٨
إنما العِشْقُ يَقيِنُ
وبه يَفْتَحُ بابٌ
أَلْفَةُ المَنَزَلِ في شرِّ عٍ من الحُبِّ حرامِ
خَطَرُ البَحْرِ حلالِ راحةِ السَّرْبِ حرامِ
خَفَقَةُ البَرَقِ حلالِ وَفَرَةِ الحَبِّ حرامِ^٩
عَلِمْنَا نَسْلُ كِتَابِ
عِشْقُنَا أُمُّ الكِتَابِ

(٩) اجتهاد

حكمة الدين كما قد زعموا
ما بها لذة سعي دائب
أين منهم جرأة العقل لدى
آه للتقليد والأسر بما
بدّلوا القرآن لا أنفسهم
وكفى القرآن نقصاً أنه
عُلمت في الهند من أيّ طريق؟
لا ولا فيها من الفكر العميق
مَحْفَل يهفو إلى الفكر مشوق
ألفوه وزوال التحقيق
كم فقيه مبعّد من توفيق^{١٠}
ما هدى المؤمنَ منهاج الرقيق^{١١}

(١٠) شكر وشكوى

لك الحمد إنّي عبدٌ جهولٌ
مَنَحْتُ القلوبَ هِيَامًا جديدًا
ومن حَرٍّ شَدَوِي يُرى في الخريف
ولكن خُلِقْتُ بأرضٍ بها
ولكن وُصِلْتُ بسرّ الغيوب
أثرتُ البعيدَ به والقريب
طَرُوبًا بصحبتي العندليب
نفوسُ العبيد برقّ تطيب

(١١) الذكر والفكر

ذانٍ للسالك الطموح مقام
ومقام التفكير قولُ ابنِ سينا
ولذلك «سبحانَ ربّي» والفك
نَزَلَتْ فيه «عَلَّمَ الْأَسْمَاءَ»^{١٢}
ومقامُ العطار بالذِّكر ضاء^{١٣}
رُ يقيسُ الزمانَ والأرجاء^{١٤}

(١٢) شيخ الحرم

يَخْفَى عَلَيْكَ مَقَامُ آدَمَ فِي الْوَرَى فَاَلنَفْسُ مَا نَالَ الْإِلَهَ وَصَالَهَا^{١٥}
مَا فِي أَذَانِكَ مِنْ صَبَاحِي دَعْوَةٍ أَوْ فِي الصَّلَاةِ جَمَالُهَا وَجَلَالُهَا

(١٣) القدر

يقول إقبال في هذه الأبيات: إن القضاء يبدو غير تابع للمنطق ولعل له منطقاً خفياً، وعلى كل حال نرى حقيقة لا جدال فيها؛ هي أن عين القضاء تنظر إلى مساعي الأمم، فتقضي فيها على قدر مساعيها.

رَبِّمَا يَبْلُغُ اللَّئِيمُ مُنَاهُ وَيُنَالُ الْكَرِيمَ ضِيمُ الزَّمَانِ
عَلَّ فِي مَنْطِقِ الْقَضَاءِ خَفَاءٌ وَيُزَيُّ دُونَ مَنْطِقِ فِي الْعِيَانِ
عَلِمَ النَّاسُ ذِي الْحَقِيقَةِ طُرًّا وَجَلَاها التَّارِيخُ كُلُّ أَوَانِ
نَحْوُ مَسْعَى الْأَقْوَامِ يَرْنُو الْقَضَاءُ
نَظْرَةً كَالْحَسَامِ فِيهَا مَضَاءُ

(١٤) التوحيد

قُوَّةٌ كَانَ فِي الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ فَصَارَ التَّوْحِيدُ عِلْمَ الْكَلَامِ
رَدَّهُ فِي الْفِعَالِ غَيْرَ مُضِيِّ جَهَلْنَا الْيَوْمَ مَا لَنَا مِنْ مَقَامِ
قَائِدَ الْجَيْشِ! قَدْ رَأَيْتُ غَمُودًا مِنْ «هُوَ اللَّهُ» مَا بِهَا مِنْ حَسَامِ^{١٦}
مَا دَرَى الشَّيْخُ أَنَّ تَوْحِيدَ فِكْرٍ دُونَ فِعْلٍ، يُعَدُّ لَغْوُ كَلَامِ^{١٧}
يَا إِمَامًا لِرُكْعَةٍ كَيْفَ تَدْرِي فِي الْوَرَى مَا إِمَامَةُ الْأَقْوَامِ؟

(١٥) العلم والدين

العلم وحده عاجز منضِل حتى يتصل به القلب ويصاحبه الإيمان، ويهديه العشق، فإن كان كذلك خلق هو إبراهيم؛ ليحطم أوثانه التي يصنعها. هذا شأن الحياة لا قديم فيها ولا حديث، والعلم والبصيرة أو العقل والقلب كالطل والنسيم لا بد من اشتراكهما في تربية الزهر.

العلم يخلق إبراهيم موثنه	إذا تراه نديم القلب والنظر
هذي الحياة وهذا الكون، ما بدلا	ما مُحدثٌ وقديمٌ قولٌ ذي بصر
ما يُحسنُ المرجُ تربيَب الزهور إذا	لم تَشركِ النسماتُ الطلَّ في الزَّهر
العلم إن لم يُضِف نجوى الكليم إلى	رأيِ الحكيم فما للعلم من قَدَر

(١٦) المسلم الهندي

قال البرهمَنُ: خائنٌ أوطانه	والإنكليزُ تقول: هذا مجتدي
ونُبوءة البنجاب قالت: كافر	مستمسكٌ بقديمه لا يهتدي ^{١٨}
أيَّان صوتُ الحقِّ يعلو ها هنا؟	ويلٌ لقلبي في الصِّراع المُجهد ^{١٩}

(١٧) على ذكر الإذن بحمل السيف

أذن الإنكليز للناس بحمل السيوف بعد أن حرم حمل السلاح كله فنظم إقبال هذه الأبيات:

أيها المسلمُ تَدري اليومَ ما	قيمةُ الفولان والعَضْب الذَّكر
هو مصراعٌ من البيت الذي	مضمَّر فيه من التوحيد سر
وأرى مصراعه الثاني في	سيفٍ فُقرٍ تحتويه كف حُر
أنت يا مسلم — إن تظفر به —	خالدٌ أو حيدرٌ يوم المَكر ^{٢٠}

(١٨) الجهاد ...

قامت طائفة في الهند تنكر الجهاد، تقول: إن هذا عصر الدعوة بالقلم لا القتال بالسيف، وتدعو المسلمين إلى السلم، فيأخذ عليهم إقبال أنهم يدعون المسلمين ولا سلاح في أيديهم، ويتركون الأمم المدججة في السلاح التي تشن الحرب بين الحين والحين.

ما السيفُ فيه حاكمٌ بين الأممِ	الشيخُ أفتى أنه عصرُ القلمِ
في مسجدٍ قد صار من لغوِ الكَلِمِ؟	أما درى الشيخُ بأن وعظَه
بل قلبُه من لَذَّةِ الموتِ حُرِمِ	فما ترى السلاحَ كفَّ مسلمِ
فكيف مِيتَةُ الشَّهيدِ يَغْتَنَمُ؟ ^{٢١}	مَنْ قلبُه يهابُ مَوْتَ كافرِ
مَنْ كَفَّه يَسيلُ في العالمِ دَمِ	فعلَّ مَنْ تركَ الجهادَ طاغياً
ليحفظَ الباطلَ في عَزٍّ عَمَمِ؟	أما ترى الغربَ بدا مُدَجَّجاً
قد حَارَ في أحكامه أُولو الفَهَمِ	يا مُفتياً على الكنيسِ مُشفقاً
والحربُ في المغربِ شرٌّ لا جَرَمِ	الحربُ في المشرقِ شرٌّ داهِمُ
مُسلم لا الفِرَنجِ ذلكَ الحَكَمِ؟	إن يَبْتَغِ الحقَّ فكيف حاسب الـ

(١٩) القوة والدين

ض من إسكندر ومن جنكيز	كم أصاب الإنسان في هذه الأر
خَطَرُ فَرَطُ قُوَّةٍ لعزیز	ويقولُ التاريخُ في كل عصر:
وما أثَّلَ الوری من كنوز	هي سيلُ غُثَاوِهِ الفَنُّ والعِلْمُ
دَوَاءٌ لكل سُمٍّ نَجِيز	وهي سُمٌّ بغير دينٍ، وبالدين

(٢٠) الفقر^{٢٢}

الفقر يمضي بلا سلاح
وكلُّ ضرب له سديد
حماسه قصَّ كلَّ عصر
يا غيرة الفقر أنجدينا
عبادة الغرب جمع مال
العشق والسُّكر ما أباحا
فُعقدة الكِمْ لم تُفتَّح
إلا بمَوْج من النسيم^{٢٣}

في حَوْمة الحَرْب كالرجوم
إن ثار من قلبه السليم
قِصَّة فرعون والكليم
واهدي إلى نَهْجك القويم
تَنخَرُ في رُوحه السقيم
أَنْ أَضِيطَ النفسُ في همومي
إلا بمَوْج من النسيم^{٢٣}

(٢١) الإسلام

إنَّ نار «الذات»، والنورُ لديها
إنَّ نار «الذات»، فاقبس من لظاها
هي تقويمٌ وجودٍ وهي أَصلٌ
إن قَلَى الغربُ مِنَ الإسلامِ لفظًا

هي للإسلام رُوح مستنير^{٢٤}
في حياة الخَلْق نورٌ وسُفورٌ
للتَّجَلِّي أُخْفِيَتْ خَلْفَ سُتُور
فله اسمٌ آخرُ: الفقرُ الغيور^{٢٥}

(٢٢) الحياة الأبدية

يؤكد الشاعر في هذه الأبيات رأيه في الذات أنها مقصد الحياة وأنها إن قويت واستحكمت لم تمت.

صَدَفٌ لَنَا هَذِهِ الْحَيَاةُ، وَذَاتَنَا كَالْقَطْرِ مِنْ نَيْسَانَ فِي الصَّدَفَاتِ^{٢٦}
مَا قِيَمَةُ الصَّدْفِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ يُحِيلُ قَطْرَاتٍ إِلَى دُرَّاتٍ
إِنْ صَانَتِ الذَّاتُ الْمُتَيْنَةُ نَفْسَهَا أَعْيَتْ عَلَى الْأَيَّامِ كُلَّ مَمَاتٍ

(٢٣) السلطان^{٢٧}

السلطان الحق هو أحد شئون الفقر، كما يفسره الشاعر، فهو تجلي «الذات» — ذات
الفقير — بالتسلط، وليس السلطان طغياناً أو بغياً إلخ ...

تَعَلَّمْ؛ فَالْفُ مَقَامٌ وَشَانٍ لِفَقْرٍ بَدَأَ فِيهِ رُوحُ الْقُرْآنِ
إِذَا أَنْجَلْتَ «الذَّاتَ» فِي قَهْرِهَا فَهَذَا مَقَامٌ لِمَلِكِ الزَّمَانِ
وَتَوَزَنَ فِي ذَا الْمَقَامِ الْقُوَى قُوَى مُؤْمِنٍ تُبْتَلَى بِامْتِحَانِ
وَإِنَّكَ فِي ذَا الْمَقَامِ عَظِيمٌ وَظِلٌّ مِنَ اللَّهِ فِي ذَا الْمَكَانِ
وَمَا ذَاكَ بِبَغْيٍ وَقَهْرٍ وَلَكِنْ هُوَ الْعَشْقُ وَالْوَجْدُ مِلءَ الْجَنَانِ
فَمَا يَسْتَطَاعُ بِقَهْرٍ وَبَغْيٍ عَلَى الْأَرْضِ حِفْظُ الْوَرَى فِي أَمَانِ
وَأَعْيَاكَ فِي الدَّهْرِ حِفْظُ لِفَقْرٍ فَأَصْبَحْتَ فِي الرِّقِّ خِدْنَ الْهَوَانِ
وَكَانَ عَلَى الدِّينِ سَيِّمًا سَجُودٌ تُبَارِي الْكَوَاكِبَ مِلءَ الْعِيَانِ
وَكَانَ عَلَى الشَّمْسِ مِنْهُ سَنًا فَهَلْ فِي نَجُومِكَ مِنْهُ مَعَانٍ؟

(٢٤) إِلَى الصُّوفِيِّ

تَرَى عَيْنَاكَ دُنْيَا الْمَعْجَزَاتِ وَفِي عَيْنِي دُنْيَا الْحَادِثَاتِ
وَمِنْ دُنْيَا الْخِيَالِ عَجَبٌ، فَاعْجَبْ لِدُنْيَا لِلْحَيَاةِ وَلِلْمَمَاتِ
تَبَدَّلْ لَهَا بِنَظَرَةٍ غَيْرِ وَاعٍ وَكَمْ تَدْعُوكَ دُنْيَا الْمُمَكِّنَاتِ

(٢٥) صريع الفرنج

١

من تجلّي الفرنج نلتَ وجودًا فهمو منك هيكلًا قد أقاموا
ومن «الذات» هيكل التّربّ خالٍ أنتِ غِمدٌ مذهّبٌ لا حسام

٢

ووجود الإله عندك ريبٌ وأرى الريبَ في وجودك أننا
إنما الكون جوهر «الذات» يُجلّى فانظرنْ أيُّ جوهر قد دفنتنا

(٢٦) التصوف

يقصد الشاعر أن علم الكلام إن لم يصلح الدين فهو لا شيء، وكذلك الذكر الذي لا يحفظ «الذات»، والعقل الذي لا يصحبه العشق، والفكر الذي لا يستجيب له القلب.

إن علم اللاهوت في ملكوتٍ ليس للدين آسِيًا — ليس شيئًا
وقيامُ الأسحار في طول وَجْد ليس للذات راعِيًا — ليس شيئًا
ذلك العقل صاعدًا للثريا ليس بالوجد ساريًا — ليس شيئًا
ينطق العقل «لا إله» ولكن ليس بالقلب مسلمًا — ليس شيئًا^{٢٨}
كلماتي خوافق وسنا الإصباح لم يبدُ خافقًا — ليس شيئًا

(٢٧) الإسلام الهندي

بوحدة الأفكار تحيا أمة
لا تُحفظ الوحدة إلا بالقوى
يا عابدًا ليس لديه قوة
وهات إسلامًا به تصوّف
للشيخ في الهند أجزتُ سجدة
ودونها الإلهام يُلقَى ملحدًا^{٢٩}
لم يُفلح العقلُ هنا ولا اهتدى
انهب إلى كهف وسبّح واعبدا
إلى الردى والذل واليأس هدى
فَحَسِبَ الإسلامُ حُرًّا سيّدًا

(٢٨) قطعة^{٣٠}

ما القلب مات، قلبُ
يمحو الفؤاد داءً
بحرُك في سُكون
لا وحشٍ أو هياجًا
وفي السماء سرٌّ
ما هاج طرفُ نجمٍ
رمى نشيدُ صبحي
شرارةً أُكِنَّتْ
دُنيا غدٍ وأمَسٍ
مَنْ حاز مثلي عينًا
فأُحيى ذا الرميما
في أمم قديما
سُحَّرَ أم أنيما؟
أو ساحلًا لطيمًا
لستَ به عليما
منك فتى كليما
أبَاءَكَ الهشيمًا^{٣١}
في طينتي قديما
يُبصرها عليما
جريئة هَجوما

(٢٩) الدنيا

أنا كذلك أبصر دنيا الألوان التي تشبهه بوقلمون، وأعرف الهلال والنجم والسماء والأرض
إلخ ... ولكنني أرى أن الإنسان وجود حق وما عاده ليس شيئًا.

وَقَلَّبْتُ فِي الْمَلَكُوتِ النَّظْرُ	كَذَاكُمْ بَدَأَ لِي بُوقَلَمُونَ
وَهَذَا عَقِيقٌ وَهَذَا حَجَرٌ	فَهَذَا هَلَالٌ، وَهَذِي نَجُومٌ
فَأَوْحَتُ إِلَيَّ صَحِيحَ الْخَبَرِ	وَعَيْنُ الْبَصِيرَةِ أَعْمَلْتُهَا
وَذَلِكَ طَوْدٌ وَهَذَا نَهْرٌ	فَهَذَا تَرَابٌ وَتِلْكَ سَمَاءٌ
وَلَا شَيْءَ مَا سَاحَ فِيهِ الْبَصَرُ	وَلَا أَكْتَمُ الْحَقَّ: أَنْتَ وَجُودٌ

(٣٠) الصلاة

الأصنام لم تنقطع عبادتها، فلا تزال تظهر بين الناس في صور مختلفة فتعبد ضروب العبادات، فاعلم أن سجود الصلاة الذي يثقل عليك ينجيك من آلاف السجود لهذه الأصنام.

وَشَابَ بَنُو الدَّهْرِ وَهِيَ فَتَاةٌ	تَلَوْنُ فِي كُلِّ ثَوْبٍ مَنَاءٌ
بِهِ مِنْ أُلُوفِ السَّجُودِ نَجَاةٌ ^{٣٢}	فَهَذَا السَّجُودُ الَّذِي تَجْتَوِيهِ

(٣١) الوحي

العقل ظن وتخمين لا تضيء به النفس فلا تنجلي به ظلمات الحياة، وإنما إدراك الحسن والقبيح بالوحي، وهذا لا يتاح إلا بأن تجلو الحياة أسرارها بنفسها.

لَيْسَ هَذَا الْعَقْلُ ذُو الْوَهْمِ	مِنْ حَرِيًّا بِالْإِمَامَةِ
فَحَيَاةُ الظَّنِّ وَالتَّخُّمِ	مِمَّنْ ضَعْفٌ وَسَقَامَةٌ
لَيْسَ فِي فِكْرِكَ نُورٌ	أَوْ إِلَى السَّعْيِ اسْتِقَامَةٌ
كَيْفَ يَجْلُو فِي حَيَاةٍ	ذَلِكَ اللَّيْلُ ظَلَامَةٌ؟
إِنْ لَغَزَ الْحَسَنَ وَالْقَبْهَ	حِجٌّ لِيُعْيِي ذَا الْفَهَامَةِ
حِينَ لَا تَجْلُو الْحَيَاةُ السُّ	سِرَّ مِنْهَا مَسْتَهَامَةٌ

(٣٢) هزيمة

خلا الصوفي من حُرَق وكَدَّ؛ شرابُ «أَلَسْتُ» معذرةُ البطالة^{٣٣}
وفرَّ إلى ترهُّبه فقيهه يرى في الشرع معتركَ البسالة^{٣٤}
إذا خشي الرجال وغى حياة فتلك هي الهزيمة لا محاله

(٣٣) العقل والقلب

سيطر العقلُ على الكون أميرًا وطوى الأفلاك والأرضَ مسيرًا
ذا جلالٍ يخضع الكون له غيرَ قلبٍ ثار بالعقل جسورًا

(٣٤) سكر العمل

في طريق الصوفيِّ سُكْرُ الحال وطريقُ الفقيه سُكْرُ المقال
ونشيد الشُّعْر المرَجَّع مَيِّت خامد اللحن لم يُشَبَّ بجمال
بين نوم ويقظةٍ غيرُ صاح بين سُكر الأفكار والبَلْبَل
وبنفسي مجاهدٌ لا أراه! فيه سكر الأعمال لا الأقوال

(٣٥) القبر

فكرة الشاعر أن النفس القوية المجاهدة لا تسكن في الحياة ولا بعد الموت، والقلندر أو القلندري الحر الذي لا يركن إلى سكون، ولا تقيده رغبة أو رهبة (راجع المقدمة).

لا يجد القلندري راحة وإن ثوى بقبره تحت الثرى
سكينةُ الأفلاك في الضريح لا فساحةُ الأفلاك أو طولُ السُرى

(٣٦) همة القلندر

يقول للزمان ذلك الفتى: امض إلى حيث يسير المؤمنُ
مالك في معتركي من طاقة حذارٍ من قلندر لا يُدعن
إذا طغى اليمُّ فهيأ أقدمنُ ما حاجتي ملاحه والسفنُ
لقد محا سحرك تكبيري فهل تقوى على جوده يا وهن؟
يحاسب الأفلاك ذا القلندرُ
وقاهرُ أيامه لا يُقهر

(٣٧) الفلسفة

ليس يخفى على القلندر فكرُ أنا عندي بكل حالِك خُبرُ
لا يقيم الحكيمُ في شَرَك اللفظ ليس همُّ الغواص أصداف بحر
إن في حلقة المجانين عقلًا إن أغلى من الجواهر، معنى
فلسفات ما سطرّت بدم القلب ساور النشءَ ظاهرًا أو خفيًا^{٣٥}
فبهذا الطريق سرتُ مليًا ولا بالحروف كان حفيًا
يبتغي الغائصون دُرًا بهيًا في شرار يرى لهيبًا مضيًا^{٣٦}
صدّق القلبُ سرّه مطويا مواتٌ أو للممات تُهيّا

(٣٨) رجال الله

إنما الحرُّ من يُجيد ضرابًا وسجايا الأحرار تجمع تاجًا
من خفايا تُرابهم أخذ الدهرُ فطرة حرة تعاف الدنيا
أنت في الكفر والتدين جَمعا لا الذي حربُه تدور هُراء
ذا سناء، وخرقة وقَباء^{٣٧} شرارًا فصاغ منه ذكاء
من طواف الأصنام عاشت براء وثنيي تُقدّس الأهواء^{٣٨}

(٣٩) الكافر والمؤمن

يكرر الشاعر هذا المعنى كثيراً: أن المؤمن مسيطر على الكون يتصرف فيه، لا يضل فيه ولا يحار، فهو سائر على قانون يرفعه على الأحداث والغير، وأن غيره مقهور في الكون حائر، تتلقفه أحداثه، وتقلبه غيرة.

والفكرة مأخوذة من مثنوي جلال الدين الرومي؛ فقد قص المثنوي قصة افتقاد حليلة الرسول في طفولته وطلبها إياه والهة، وأن جبريل لقيها فقال لها: لا تخشي عليه أن يتيه في الآفاق، فهذه الآفاق تتيه فيه:

الخضر لي قولاً أعيه ^{٣٩}	أمس عند البحر قال
فرنج تتقيه؟	تبتغي الترياق من سم
هو بالسيف شبيه	فخذن قولاً سديداً
خبرة الصيقل فيه:	ذا مضاء وضياء
له الآفاق تيه	إنما الكافر حيران
تاht الآفاق فيه	وأرى المؤمن كوناً

(٤٠) المهديُّ الحق

سيَّارُ إفرنج وثابتُ مشرق ^{٤٠}	كلُّ نوى في محبس من صنعه:
لا جدَّة في القول أو في المنطق	والشيخ في حرم وحبر كنيسة
والشعرُ أفلس في خيال مُغلَق	أهلُ السياسة في شراك قديمهم
عالمُ الأفكار، غيرَ مُمخرق	من لي بمهديٍّ له نظر يزلزل

(٤١) المؤمن

١

في الدنيا

مع الصَّحْبِ لَيْنٌ كَمَسِّ الحَرِيرِ بَعِيدٌ مِنَ المَحَكِ، المَوْمِنُ^{٤١}
حَدِيدٌ إِذَا مَا طَغَى باطل جَرِيءٌ لَدَى المَعْرَكِ، المَوْمِنُ
مِنَ الطَّيْنِ، لَكِنْ عَلَى الطَّيْنِ يَسْمُو وَيَأْبَى عَلَى الفَلَكِ، المَوْمِنُ
وَمَا هُمُّهُ صَيْدٌ طَيْرٌ وَلَكِنْ يَصِيدُ مِنَ المَلَكِ، المَوْمِنُ

٢

في الجنة

تَقُولُ المَلَأَكُ فِي غِبْطَةٍ: حَبِيبٌ إِلَى قَلْبِنَا، المَوْمِنُ
وَلِلْحَوَرِ شَكْوَى إِلَى رَبِّهَا: سَرِيعٌ إِلَى هَجْرِنَا، المَوْمِنُ

(٤٢) محمد علي الباب

ناقش جماعة من العلماء في إيران محمد علي المسمى الباب، فقرأ من القرآن فلحن في إعراب السماوات! فضحك الحاضرون، فقال: إن بشرى إمامتي تحرير الآيات من الإعراب!

أَجَابَ «البابُ» فِي حِفْلِ مَفِيضًا فِي مَقَالَاتِ
وَفَاتِ الشَّيْخِ تَوْفِيقُ بِإِعْرَابِ «السَّمَاوَاتِ»
سَرَتْ فِي الحَفْلِ غَلْطُهُ فَلَاقَوْهُ بِبِسْمَاتِ
فَقَالَ «البابُ»: لَمْ تَدْرُوا وَفَاتَكُم مَقَامَاتِي

ثوى القرآن بالإعراب في حبس وإعنات
وإن إمامتي جاءت بتحرير لآيات!

(٤٣) القدر^{٤٢}

الخالق وإبليس

إبليس:

يا إلها أمره كن ليس عنه من مَحيد
لم يُصَبْ آدمُ مني بعدوُّ أو حسود
ويل غرٌّ، من زمان ومكان في حدود
كيف أَسْتَكْبِرُ عن أمرك أو كيف أحيّد؟!
كان في علمك أني حائد عن ذا السجود

الخالق:

هل عرفت السر هذا قبلَ أو بعدَ الجحود؟

إبليس:

بعدُ! يا مَنْ من تجلّيه كمالاتُ الوجود

الخالق (ناظرًا إلى الملائكة):

خَسَّةُ الفطرة فيه علمته ذاك عذرا
قال: ما شئتَ سجودي أنا لا أملك أمرا
ذلك الظالم سَمَى إختيارًا فيه جبرا
إنه سَمَى رَمادًا شُعلة فيه وجَمرا

(٤٤) أي روح محمد

يصف الشاعر في هذه الأبيات غمه وحيرته؛ فالأمة الإسلامية انفرط عقدُها، وفي صدره موج، ولكن بحر العرب الذين ماجت بهم أحداث التاريخ ليس فيه هياج اليوم فيخلط به هذا الموج، وهو حادٍ ولكن لا زاد له ولا قافلة يحدوها، وأمامه فيافٍ هائلة، وهو حفيظ على آيات الله يبتغي أن يسير بها، فهو يلتمس سبيله في هذا العالم ويسأل روح الرسول أين يذهب.

أرى الملة البيضاء بُدِّدَ نظمُها	فمسلّمك انظر حاله، أين يذهب؟
وليس ببحر العرب لَذَّةُ ثُورَة	وفي الصدر موج غاله، أين يذهب؟
ولا ركَبٌ للحادي ولا زادٌ عنده	وقطعُ الفيافي هاله، أين يذهب؟
فبيِّن لنا الأسرار روح محمد!	حفيظٌ لآي، يا له، أين يذهب؟

(٤٥) مدنية الإسلام

الجنون هنا معناه الحماس للعمل والإقدام في غير مبالاة، فحياة المسلم في رأي الشاعر تجمع العقل والإقدام، وهي كالشمس تغرب لتطلع، وهي فذة لا نظير لها ولكنها كالزمان في شئون متعددة، وهي قائمة على الحقائق وجامعة عناصر الجمال والقوة.

حياة المسلم اعرف في بياني	كمالُ العقل فيها والجنونُ
سنًا كالصبح مغربه طُلوعُ	وحيدٌ، كالزمان له شئون
ولا كالعصر، خِلْوٌ من حياء	ولا فيها من الماضي فتون
حياةً بالحقائق في قرار	وليسَتْ ما يُطلِسُّم أفْلَطون ^٢ ؛
عناصرُها يؤلفُها جمال	تمثِّل فيه جبريل الأمين
وحسنُ الخلق من عَجْم لديها	ونارُ العرب فيها والشجون

(٤٦) الإمامة

يقصد إقبال من ادَّعوا الإمامة في الماضي وفي عصره، ويرى أن الإمام من يعلو بأصحابه عن قيود الحاضر المشهود إلى عالم المعنى الفسيح غير المحدود إلخ.

حَبَاك الله مثلي بالخفايا	أُتَسألني: الإمامةُ ما مداها؟
فتسأُ ما تشاهد في البرايا	إمامُ العصر حقًا من تراه
حبيب فتجتوي عيش الدنيا	بمرآة الممات يريك وجه الـ
فينفخُ فيك مشبوبَ السجايا ^{٤٤}	ويُشعرك التخلفَ عن كمال
فيطبعُ منك سيفًا للمنايا	يُمِرُّ عليك من فقرٍ مَسْنًا
كأن المسلمين به سبايا ^{٤٥}	فُتون الملة البيضاء إمام

(٤٧) الفقر والترهب

يشيد إقبال بالفقر، وينسب إليه المعجزات، وهو فيما يؤخذ من كلامه — التحرر من الطمع والحرص، وألا يملك الإنسان ما يملكه فيذله ويصده عن الحق والخير، وهو لا يشبه الرهبانية في شيء، فمن حسب الفقر رهبانية فإسلامه غير الإسلام الذي يعرفه الشاعر.

الفقر عندك كالترهب يظهر	إسلامك الموهومُ شيء آخر؛
وشراع فقر في عُباب يمخر	شتانَ، فانظر، بين خلوة راهب
فنهاية الإيمان «ذات» تبهر ^{٤٦}	في الروح والأبدان يبغي جلوة
فعن الفناء أو البقاء يخبر ^{٤٧}	هو صيرفي الكائنات وجوده
أم موج رائحة ولون يزخر؟	فاسأله عما ترتئيه أعالم
ذا الفقر — لما ضاع هذا الجوهـر	لما أضاع المسلمون على المدى
سلمانَ دولة عزة لا تقهر	لم يبق فيهم من سليمان ولا

(٤٨) قطعة^{٤٨}

متاعك في الحياة فنونُ علم	تَظَلُّ الدهرَ منها في حُبور
وما عندي متاع غير قلب	طموح ما أراه بالصبور
لأهل الفكر معجزة تجلّت	بفلسفة معقّدة السطور
وأهلُ الذكر شادوا معجزاتٍ	على موسى وفرعون وطور ^{٤٩}
أقول لمسلم: ما فيك صدر	لأنفاس بها حرُّ النشور
ومزقتُ الجيوبَ وأنت خالٍ	جُنوني - لا ألوّك - في قصور ^{٥٠}
أقلّ القولَ وافتح عين قلب	ولا تك مهذراً عند البصير
وما إن ذلّ قوم قد أعدوا	حماس العشق والفقر الغيور

(٤٩) التسليم والرضا

على كل غصن تبين أن النبـ	سات مَشوقٌ لرحب الفضاء
فما قرّ في ظلمة الترب حبّ	جُنونُ النشوء به والنماء
فلا تبغ في فطرة ترك سعي	فما ذاك معنى الرضا بالقضاء
لأهل النماء فضاءً فسيحُ	
وما ضاق مُلك الإله، فسيحوا	

(٥٠) نكتة التوحيد

بنى الشاعر هذه القطعة على القافية المردوفة فحاكيته في الترجمة، والروي حروف النون في موثناً ومطعنًا إلخ ...

إن سر التوحيد طوع بَياني	شدت في الرأس موثناً، ما احتيالي؟ ^{٥١}
رمز شوق بلا إله خفي	ليس في الفقه بيئاً، ما احتيالي؟

كم سرور في حرب حق وزور لست في الحرب مطعناً، ما احتيالي؟^{٥٢}
كم تُجَلِّي الأفاق نظرة حرّ حجب الرقّ أعيناً، ما احتيالي؟
أيُّ مُلكٍ مقامُ فقرٍ! ولكن تؤثر الذلّ مُدعناً، ما احتيالي؟

(٥١) الإلهام والحرية

إن للحرّ ملهًما نظراتٍ تحفز القولَ والفِعالَ بنار
حرّ أنفاسه يَشيع بروض فترى الروض مُزهراً من شرار
يَهُبُ العندليبَ سيرةً باز كيف حالت طبائعُ الأطيّار؟
يَمْنَحُ المجتدين شوكةً جمّ عارفُ النفس واله الأَسْحار^{٥٣}
ووقى الله حكماً لذليل مثل جنكيز طالعٍ بالدمار^{٥٤}

(٥٢) الروح والجسم

يقول إقبال في هذه الأبيات: إن همي في هذه الحياة القلق والثورة والسرور والحزن، وأنت شغلت نفسك بهذه الأسئلة ولم تشعر بحقيقة الحياة.

تحيّر الناس في ذا اللغز من قدم:
ما جوهر الروح أو ما جوهر البدن؟
ومشكلي في اضطراب بي وفي ثَمَل
وثورة وسرور النفس والحزن
ومشكلٌ لك أن الخمر من قدح
أو أنّ من خمرة كأساً، لذى زكن^{٥٥}
ما اللفظ والمعنى؟ وكيف الروح في بدن؟
جمراً بدا في رَمَادٍ منه للْفَطْنِ

(٥٣) لاهور وكراچي

روي أن هندوكيَّا في لاهور اسمه راجبال أساء الأدب في الحديث عن الرسول — صلوات الله عليه — فذهب إليه مسلم اسمه علم الدين وقتله في غير ضوضاء، وأن رجلاً من الهنادك في كراچي فعل فعله فذهب إليه مسلم من كوهات في غير مشاورة ولا مؤامرة فقتله، وأراد المسلمون أن يؤدوا دية القتيلين ويُنجوا القاتلين من العقاب فكتب إقبال الأبيات:

قد تولى الله عبداً	مسلم ما أمرا
هو بالموت إلى عا	لم روح سافرا
كيف تَفدون شهيداً	لخلود آثرا
دُمهُ من حَرَم أعلى	وأغلى جوهراً ^{٥٦}
آه للمسلم غفلان	نسيًّا ما درى:
سرٌّ «لا تدع مع الله	إلهًا آخرًا» ^{٥٧}

(٥٤) النبوة

يعني الشاعر بهذه الأبيات من ادعى النبوة ودعا إلى المسالمة والكف عن الجهاد.

لستُ المحدثَ والفقيةَ	ولا الوليَّ ولا المجددَ
لا علم عندي بالنبوةَ	كيف توصف أو تحدّد
لكن إلى الإسلام في الأيام	لي نظر مسدد
أوحى إليّ بسرّه الفلكُ الـ	محيط فلا أفنّد
فرايت في ظلمات هذا الـ	عصر ذا الحق المؤيّد:
عندي حشيش المسلمين	نبوةٌ فيهم تجدد
ما إن لديها دعوة	لللبأس والمجد المخلّد

(٥٥) الإنسان

ذَا طَلَسُمُ الْكَوْنُ وَالْعَدَمُ سُمِّيَ الْإِنْسَانُ مِنْ قِدَمٍ
هُوَ سِرُّ اللَّهِ جَلًّا فَلَا يَحْتَوِيهِ الْوَصْفُ فِي كَلِمٍ
إِنْ هَذَا الدَّهْرُ مِنْ أَزَلٍ مِنْ سِفَارٍ بَاءَ بِالسَّقَمِ
وَمَضَى الْإِنْسَانُ سِيرَتَهُ لَمْ يُصَبِّ بِالضَّعْفِ وَالْهَرَمِ
وَإِلَيْكَ السِّرُّ أُعْلِنَهُ إِنْ تَسَعَّهُ غَيْرَ مَتَّهِمٍ
مَا بَدَأَ رُوحًا وَلَا بَدَنًا ذَلِكَ الْإِنْسَانُ لِلْفَهَمِ

(٥٦) مكة وجنيوا

كَمْ حَدِيثٍ عَنِ الشُّعُوبِ سَمِعْنَا وَحَدَّةُ النَّاسِ حَجَبَتْ عَنْ عِيَانِ
حِكْمَةُ الْغَرْبِ فُرْقَةُ النَّاسِ وَالْإِسْ لَامٌ فِيهِ تَوْحُّدُ الْعُمَرَانِ
وَمَقَالٍ مِنْ مَكَّةَ لَجَنِيوَا قَدْ وَعَاهُ اللَّيِّيبُ فِي كُلِّ آنٍ
خَبَّرَنِي الْيَقِينُ: هَلْ عَصَبَةُ الْأَقْدِ سَوَامٍ خَيْرٍ أَوْ عَصَبَةُ الْإِنْسَانِ؟

(٥٧) يا شيخ الحرم

وَدَّعِ الْخُلُوعَ يَا شَيْخَ الْحَرَمِ وَاسْمَعْنِي فِي الْفَجْرِ مَنِيَّ ذَا النِّعَمِ
يَحْفَظُ اللَّهُ لَكَ الْفَتْيَانِ فِي حُكْمِ نَفْسٍ، وَاشْتِعَالٍ فِي الْهَمَمِ
هُمْ عَنِ الْغَرْبِ زَجَاجًا أَخَذُوا عَلَّمَنَهُمْ صَدْمَةَ الصَّخَرِ الْأَصَمِ
طَوْلُ ذَلٍّ أَظْلَمَ الْقَلْبُ بِهِ أَدْرِكِ الْحَيْرَانَ فِي هَذَا الظَّلَمِ
فِي جَنُونِي مِنْكَ أَسْرَارُ بَدَتْ فَاجْزِنِي يَا شَيْخَ عَنْ هَذَا اللَّمَمِ^{٥٨}

(٥٨) المهدي

كتب سبنجلر يقول: إن ضعف المسلمين من إيمانهم بالقدر والمهدي! فرد إقبال بأن هاتين العقيدتين غريبتان عن الإسلام! وكتب مولانا أسلم جرا جبوري يأخذ على إقبال أنه يذكر المهدي في شعره أحياناً، فكتب إقبال هذه الأبيات يبين رأيه في عقيدة المهدي ويذكر أنه يتوسل بها أحياناً إلى نفخ الحياة في موتى الأحياء.

أرى الأقوام تَمضي في حياة	على قدر التخيل في الحياة
فمجنون الفرنج على خيال	من المهدي قاد إلى النجاة ^{٥٩}
فإن تنفر من المهدي ينفِرْ	غزال المسك من هذي الفلاة ^{٦٠}
إذا ما الحيُّ من جهل تردَّى	بأكفان وأغرَق في سُبَات
أُتسَلِّم ذا الجهول إلى الردى أم	تمزَّق عنه أثواب الممات؟

(٥٩) المؤمن

إن للمؤمن العجيب الشان	كل حين جديدَ شانٍ وأن
هو في قوله السديد وفي الفعل	على الله واضح البرهان
فيه قدسيَّة إلى جبروت	ومن القهر فيه والغفران
إن تُولِّف هذي العناصرُ كان	المسلمُ المستعلي على الحدّاث
هو تُربُّ سما يجاور جبريل	ويأبى الحلول في الأوطان
لست تدري بسرّه فتراه	قارئاً وهو صورة القرآن
فيه عزم على القضاء دليل	وهو في العالمين كالميزان ^{٦١}
هو برد الندى بقلب شقيق	وبقلب البحار كالطوفان ^{٦٢}
ليله والنهار لحن حياة	في انسجام كسورة الرحمن
إن فكري مطالع لنجوم	نجمك اعرف طلوعه في بياني ^{٦٣}

(٦٠) المسلم البنجابي

عرف أهل البنجاب بكثرة النحل والدعوات المبتدعة.

مجدد في كل حين مذهباً	يحل في مرحلة ليركبا
في حلبة التحقيق نكس وإذا	قامره داع غوي غلبا
حباله التأويل إن تنصب له	هوى من العش إليها معجبا

(٦١) الحرية

ينعي إقبال في هذه الأبيات على من يدعون الحرية حين يتحدثون في الإسلام وحضارته، فإذا عرضت أوروبا وحضارتها خنعوا لها فكراً وفعلاً.

ألا من يطيق اليوم نصاً لمسلم	وحرية الأفكار من ربّه أمر
من الكعبة اجعل بيت نار وإن تشأ	فموثن إفرنج به الزور والسحر
وإن شئت فالقرآن تأويل للاعب	فجدد لنا شرعاً يلائمه العصر
رأيت بأرض الهند أي عجيبة	فإسلامها عبد ومسلمها حر

(٦٢) نشر الإسلام في بلاد الإفرنج

هذي الحضارة ما تدين قلبها	فأخوة الإفرنج بالعصبات
فلئن تنصر برهمي لم يزل	للإنكليز إليه نظرة عات
ولو أنهم قد أسلموا لم يرفقوا	بالمسلم المنكود من إعنات ^{٦٤}

(٦٣) لا وإلا

يرى إقبال أن الحياة محو وإثبات أو هدم وبناء، فالأمة الصالحة تمحو السيئ وتثبت الحسن، وكلمة التوحيد قائمة على نفي غير الله وإثبات الله، فإن محت الأمة ولم تثبت أو هدمت ولم تبين فعاقبتها الفناء، وهو يعني هنا حضارة أوروبا عامة والروس الشيوعيين خاصة.

لو لم تسر في ظلام التُّرب نابئةٌ	ما نشَّرت في فضاء النور أغصانا
تقضى الحياة بـ «لا» في البدء نافية	وفي النهاية «إلا» تُكمل الشانا
إن لم تجئ بعدها «إلا» مثبتة	كانت على الموت «لا» في الدهر عنوانا
إن أمة روحها لم يعض معتزماً	عن «لا» فقد آذنت بالهَلْكَ إيذاناً

(٦٤) إلى أمراء العرب ...

العرب هم الأمة التي حملت إلى الأمم رسالة الإسلام وعلمتها الأخوة والتعاون، والشاعر ينعي على أمراء العرب أن نسوا هذه الرسالة التي بلغوها وكانوا أحقَّ بها وأهلها.

هل يُسعدُ الكافرَ الهنديَّ منطقهُ	مخاطباً أمراءَ العُربِ في أدبٍ
مَنْ أمةٌ قبل كل الناس قد أخذتْ	بحكمة فأعانتها على النُوب:
إخاءُ مصطفويٍّ دون تفرقة	وهجرُ كلِّ غويٍّ من أبي لهب
ما من حدودٍ وأرضٍ كان منشؤها	من أحمدِ العُربِ كانت أمةُ العُربِ

(٦٥) الأحكام الإلهية

إقبال يؤمن بحرية الإرادة، وينفر كلَّ النفور من الاعتقاد بالجبر والاستسلام للأحداث، وفي هذه الأبيات يقول: إن الجمام والنبات خاضع لقوانين لا يحيد عنها، وأما المسلم فهو خاضع لأحكام الله لا لقوانين طبيعية تسيره مجبراً، وهذه الفكرة تلقى قارئ شعره في مواضع كثيرة.

قيدَ القضاء ترى أم قيدَ أحكام
في كل حين ترى التقديرَ في غير
إن النبات وإن الجامدات لها
والمؤمن الحر لا شيء يقيده
ما أعجزت هذه أربابَ أفهام
رهينُها بين لذات وآلام^{٦٥}
من القضاء قيودُ ذاتِ أحكام
لكنْ لخالقه في قيد أحكام

(٦٦) الموت

يرى الشاعر أن القلب الحي لا يموت فهو حي بعد الموت طموح طلعة لا يرضى بالسكون والقرار، وإنما حياة القلب في رأيه بقوة الذات «خودي»، والموت لا ينال الذات حين ينال الجسم.

في اللحد أيضًا يبقى
إن يك قلبٌ حيًّا
هذي النجوم تمضي
والذاتُ فيها راحٌ
إن مسَّ جسمًا موتٌ
فللوجود قُطب
الغيابُ والحضور
فالقلب لا صبور
كشَرَرٍ يطير
في أبدٍ سرور
واحتجب الظهور
مَناله عسير

(٦٧) قم بإذن الله

في هذه الأبيات يبشر إقبال بالمستقبل الوضاء على رغم الخطوب ويقول: تغيرت الدنيا ولكن الأرض والسماء كما كانتا، وكلمة «قم بإذن الله» مكررة بلفظها في الأصل.

إن تحل دنيا فلم تَفَنَ أرضٌ
من «أنا الحق» انطوى فيك قلب
لا تُرَع مما ترى؛ لفرنجٍ
وسماءً، قم بإذن الله
ومضاءً، قم بإذن الله^{٦٦}
سيمياء، قم بإذن الله^{٦٧}

هوامش

- (١) بنى الشاعر هذه الأبيات على كلمة التوحيد بلفظها العربي فجهدت في الملاءمة بينها وبين الوزن وجعلتها ردفاً وبنيت الروي قبلها على الهاء غير ملتزم حرفاً آخر.
- (٢) الوثن جمع وثن، والموثن مكان الأوثان.
- (٣) يريد أن في المعراج سر الروح، وهو رمز إلى أن المسلم سهم هدفه الفلك.
- (٤) جهلت أسرار الآيات في أول سورة النجم، التي يذكر فيها الوحي وتقريب الرسول إلى ربه، وليس جهلك عجبياً؛ فإن نفسك لم تكمل ولا تزال خاضعة لما يؤثر فيها محتاجة إليه كما يحتاج البحر إلى القمر في مده.
- (٥) برجسون فيلسوف فرنسوي، ويلفظ اسمه في الهند: بركسان. وهيكل فيلسوف ألماني.
- (٦) سومنات معبد كبير في الهند هدمه السلطان محمود الغزنوي حينما فتح الهند، ويشيده الهنادك اليوم. واللات ومناة من أصنام العرب.
- (٧) هذان البيتان من شعر الخاقاني في «تحفة العراقيين»، وأبو علي والبخاري في البيتين: ابن سينا.
- (٨) يستعمل كثيراً في الآداب الإسلامية غير العربية كلمة مكين مع مكان، ويراد بها من يحل في المكان.
- (٩) الحب لا يرضى القرار؛ ففي شرعه ألفة المنزل حرام، وحلال ركوب الخطر في البحر، وحرام الدعة على البر، وخفقة البرق التي تحرق البيدر حلال، ووفرة الحب أي الجمع والادخار وحب السلامة حرام، وذكر البرق والبيدر شائع في الشعر الفارسي والأردني.
- (١٠) كرر إقبال هذا المعنى في شعره، يقول: إن النفوس قد ضعفت فأولت القرآن تأويلاً يلائم ضعفها؛ إشفافاً من تكاليفه.
- (١١) يعني أن الذين بدلوا القرآن المذكورين في البيت السابق لم يجدوا في القرآن طريقاً إلى العبودية التي سكنوا إليها فحسبوا القرآن ناقصاً.
- (١٢) الآية: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.
- (١٣) في الأصل: العطار والرومي أي فريد الدين العطار وجلال الدين الرومي وهما من كبار شعراء الصوفية.
- (١٤) الذكر يتصل بالحقيقة الإلهية، والفكر في شغل بقياس الزمان والمكان.

(١٥) يخفى عليك مقام الإنسان؛ ولهذا أخذت إلى الأرض؛ فلم تصل إلى الله.
(١٦) رأيت غموذًا ليس فيها حسام من التوحيد، وفي الأصل: من «قُلْ هُوَ اللَّهُ» أي ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

(١٧) لا يفيد توحيد الأفكار دون توحيد الأفعال؛ فإن ثمرة وحدة الفكر وحدة العمل.

(١٨) نبوة البنجاب يقصد بها من ادعى النبوة في البنجاب.
(١٩) هذا الشطر مضمن في الشعر وقد جاء في الأصل بلفظ فارسي.
(٢٠) يريد خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب.
(٢١) يريد بموت كافر: الموت في غير جهاد.
(٢٢) انظر الكلام على الفقر في المقدمة.
(٢٣) كم الزهر لا يفتح إلا بالنسيم، وبيان الشاعر وشكواه كالنسيم تفتح بهما نفسه.

(٢٤) روح الإسلام هي الذات نارها ونورها.
(٢٥) إن نفر الفرنج من لفظ الإسلام فنحن نسفيه اسمًا آخر فيه حقيقته هو الفقر الغيور (انظر الفقر في المقدمة).

(٢٦) يقال: إن الأصداف تكون على سطح الماء مفتوحة فإذا نزل مطر نيسان تدخل في كل صدفة قطرة منه فتتطبق عليها حتى تتحول درة. والشاعر يجعل الحياة صدفة، والذات قطرة من نيسان، ويريد أن تحكم الحياة الذات كما تحيل الصدفة القطرة درة.
(٢٧) كتب في بهوبال في رياض منزل «دار السيد راس مسعود».

(٢٨) أي يقول العقل: «لا إله إلا الله» إلخ.
(٢٩) بغير توحيد الأفكار تعم الفوضى، فالإلهام الذي هو سبيل الإيمان يصير إلحادًا.

(٣٠) عنوان هذه القطعة في الأصل «غزل»، والغزل عندهم أبيات قليلة تجمع أفكارًا مختلفة.

(٣١) الأباء: القصب، وهو سريع الاحتراق، ثم القصب يحرق أحيانًا لإخصاب الأرض؛ فالشاعر يعني أنه يحرق الأنفس؛ لتزاد حياة.
(٣٢) تجتويه: تكرهه.

(٣٣) يوم ألتست أو عهد «ألتست» إشارة إلى الآية: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فالصوفي في سكر بذكرى ألتست؛ يتعلل به، ويعتذر لبطالته.

- (٣٤) لما رأى الفقيه أن الشرع جهاد وكفاح فَرَّ إلى التَّرهُّبِ.
- (٣٥) القلندر هنا إقبال نفسه.
- (٣٦) بين الذين يعدون مجانين من أصحاب القلوب الحية من يرى الحقائق الكبيرة في مظاهرٍ صغيرةٍ فيرى في الشرارة لهيباً عظيماً.
- (٣٧) سجية الحر فيها عظمة الملك وفيها خلق الصوفية لابسي الخرقه، وفيها فقه العلماء لابسي القباء.
- (٣٨) الأحرار منزهون عن عبادة الأصنام وأنت في إيمانك وكفرك لا تخلو من عبادتها.
- (٣٩) يروى أن الخضر صَاحَبَ إسكندر حتى بلغا أرض الظلمات وفيها عين الحياة فشرب منها الخضر فخلد، ولم يهتدِ إليها إسكندر! فينسب الشعراء إلى الخضر المعرفة والحكمة، ويقولون عنه ما يشاءون.
- (٤٠) الفرنجي الدائب في العمل كالكوكب السيار، والشرقي القاعد عن السير كالكوكب الثابت.
- (٤١) القافية مردوفة بكلمة «المؤمن» والروي الكاف التي قبلها.
- (٤٢) مأخوذة عن محيي الدين بن عربي.
- (٤٣) ليست قائمة على أفكار أفلاطون التي ترى الحقائق في عالم المثل لا على هذه الأرض.
- (٤٤) يشعرك ما فيك من نقص وما فاتك من كمال.
- (٤٥) فتنة الملة الإسلامية إمام يمكن أصحاب السلطان من إذلال المسلمين.
- (٤٦) الضمير في «يبغي» يرجع إلى الفقر، وهو يطلب تجلي الروح والجسم، وتجلي الذات هو مقصد الإيمان.
- (٤٧) هذا الفقر ينقد الكائنات فيقول: هذا للفناء وهذا للبقاء، وهذا حق وهذا باطل.
- (٤٨) عنوان هذه القطعة في الأصل «غزل» والغزل في عرف شعراء الفرس ومن تقلبهم، أبيات قليلة في موضوع أو موضوعات، وربما لا تشتمل على شيء مما يسمى بالغزل في الشعر العربي.
- (٤٩) يقصد بموسى وفرعون كل من له صفات موسى أو صفات فرعون فلهذا نكرت الاسمين وصرفتهما.

(٥٠) يعني أني لم أصيرك مثلي مجنوناً؛ لأن جنوني لم يكمل فلم يؤثر فيك، فاللوم علي لا عليك.

(٥١) يمكن أن يبين سر التوحيد، ولكن ما حيلتي وقد بنيت في رأسك معبداً للأوثان، وقد وضعت كلمتي مصنم وموثن لمكان الصنم والوثن، ترجمة لكلمتي بت كده، بتخانـه ونحوهما.

(٥٢) كم سرور في مجاهدة الباطل بالحق في هذه الحياة.

(٥٣) جم: جمشيد أحد ملوك الفرس في الأساطير.

(٥٤) يريد أن حكمة الذليل تدمر الأمم كغارات جنكيز.

(٥٥) الزكن: الفطنة.

(٥٦) يعني أن كل ما تبذلون لا يساوي دم الشهيد إلخ ...

(٥٧) الآية: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ سورة الشعراء.

(٥٨) يعني أن نشوته وولـهه — وقد عبر عنهما بالجنون — أدركا أسرار شيخ

الحرم فأفشيها، فهو يسأل الشيخ أن يكافئه عن هذا الجنون.

(٥٩) يعني الفيلسوف الألماني نيتشه الذي تكلم عن الإنسان الكامل.

(٦٠) يعني أن هذه الفكرة تعطر بها النفوس المقفرة وتحمل ما يحمله غزال المسك

في الفلاة فلا تحرم الناس منها.

(٦١) يقول إقبال في مواضع كثيرة: إن عزم المؤمن من القدر أو هو مشير على

القضاء والقدر، وإن رأيه وعمله ميزان الصلاح والفساد في الحياة، وهنا يقول: إنه ميزان

الأعمال في الدارين: الدنيا، والآخرة.

(٦٢) هو تارة كالندى يبرد قلب الشقائق، وتارة كالموج الهائج في البحر ...

(٦٣) يقول: أيها الباحث عن مستقبله في طوابع النجوم، هلم أدلك على أسباب

السعادة: فإن فكري يطلع نجومًا صادقة تدل على السعد والنحس.

(٦٤) لو أن الإنكليز أسلموا لم يحسنوا معاملة المسلم.

(٦٥) عالم الطبيعة والحوادث في تغير مستمر، فمن خضع له تداولته اللذات

والآلام.

(٦٦) يرمز إلى قصة الحلاج الصوفي الذي قال: أنا الحق! يقول للمسلم: فيك روح

تنسب إلى الأرواح العظيمة.

(٦٧) لا يركع ما يحيط بك من فتن الإفرنج فهي سيمياء لا حقيقة لها.

الفصل الثاني

التعليم والتربية

(١) المقصود^١

يبين هنا الشاعر رأي اسينوزا الفيلسوف ورأي أفلاطون ورأيه هو في المقصود من هذه الحياة.

اسينوزا

يبصر العاقل الحياةَ وليست غيرَ نور وجلوة تُستَحَبُّ

أفلاطون

يبصر الموتَ عاقلٌ، فحياة كشرار بجنح ليل يشبُّ
ما إلى الموت والحياة التفات مقصدُ الذات رؤية الذاتِ حسبُ^٢

(٢) إنسان هذا العصر

حُرم العشقَ وللعقل به نكزات كشجاع يثأرُ^٣
تبعَ العقلَ شروءًا سادِرًا ما هدى العقلَ لديه بصر
لم يسافرَ في دُنَى أفكاره وعلى الأفلاك دام السفر

ضرب الكليم

هو من حكمته في شَرِكٍ غابَ عنه نفعُهُ والضررُ
مَنْ شُعا الشمس في قبضته ما به ليلُ حياةٍ يُسِفِرُ!

(٣) أمم الشرق

كيف تُجلى حقائقُ لعبون عَمِيَتْ بالخضوع والتقليد
كيف يُحيي الفرنجُ عُربًا وفُرسًا بفنونٍ تسير نحو اللحد

(٤) التنبه

في هذه الأبيات ينعي إقبال أيضًا على الإنسان اهتمامه بعالم الطبيعة وإهماله نفسه، ويقول: إن تقوية الذات وتقديرها يعين الإنسان على الحادثات ويبصره الجميل والقبيح في البصيرة، والحلال والحرام، حلال القلب وحرامه، «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون».

نظر المنجّم في حِباك نجومه لكنّ مقامُ الذات عنه يُسْتَر
مَنْ يَدِرُ أن الذات أرفع منزلًا عَرَفَ الزمان وصرفه لا يُقَهَرُ
وجميلَ أنظار يرى وقبيحها وحلالَ قلب والمحرم يُبَصِّر

(٥) مصلحو الشرق

يأخذ الشاعر على مصلحي الشرق أنهم لم يخرجوا للناس شيئًا، وأنهم لم يستمسكوا بالسنن الصالحة القديمة، ولا أخذوا بالسنن الحديثة.

يَتَسَتُّ فلا أَرْجِي في أناس لهم فَنُّ كفنِّ السامريِّ
سُقاةً في رُبوع الشرق طافوا على النِّدْماء بالقَدَحِ الخليِّ
سحابٌ ما حوى برقًا قديمًا وليس لديه من برقِ فِتْيٍ

(٦) الحضارة الغربية

أرى تثقيفَ إفرنج	فسادَ القلب والنظر
فَروح حضارة لهم	خلت من عفة الوطر
إذا ما الروح جانبها	جمالُ الصفو والطُّهر
فأين جمالٌ وجدانٍ	ولطفُ الذوق والفكر

(٧) أسرار ظاهرة

قال موسوليني لإقبال حين لقيه: من ملك الحديد ملك كل شيء. فأجاب إقبال: من كان هو حديدًا فهو كل شيء. وقد ضمن هذا المعنى البيت الأول من الأبيات التالية:

ما بهم حاجةٌ إلى السيف قومٌ	من حديد يُصاغُ فيهم شبابٌ
أين منك الأفلak؟ إنك حرٌّ	وهي قَهْرٌ نهابها والإياب
ما اصطخاب الأمواج؟ لذّة سعي	واللاكي يصوغها الوهاب
ليس يهوي الشاهين من طول خفق	يا أخا العزم لا ينلك التراب

(٨) وصية السلطان تيبو

السلطان تيبو كان من ملوك المسلمين في ميسور جنوبي الهند، وقد حارب الإنكليز زمنًا طويلًا وحاول أن يؤلب عليهم دولًا إسلامية ويتفق مع نابليون، وكان في مصر حينئذ، فجمع له الإنكليز ما استطاعوا، فلما يئس من النصر ألقى بنفسه من قلعة فمات سنة ١٢١٣هـ.

وهو عند إقبال ممن تتجلى فيهم «الذاتية»؛ فقد جعل هذه الوصية على لسانه. وفي هذه الأبيات أصول من فلسفة إقبال: يدعو إلى السير الدائب وهجر المحمل ولو في صحبة ليلي، وإلى المضي والتقدم والنماء، فهو يدعو جدول الماء أن يسير حتى يصير نهرًا، وإلى السيطرة على هذا الكون والعلو عليه حتى لا يضل الإنسان فيه، وإلى أن يحرق الإنسان بحرارة ذاته ولا يقبس من أحد نارًا، وألا يذل القلب للعقل.

طاوَيَ البيداء شوقًا! أَقْبِلُنْ
لا! وإن سار بليلى محمِلُ
جدولَ الماء! تقدم مُسرِعًا
لا تَحَزْ في مَصْنَم الكون وسرْ
يا مُذِيب الحَفَل! لا تقبل له
كل قلب ذلَّ للعقل فقد
وَحَدَ الحقُّ وثَنَى باطلُ
لا تعرِّج، منزلًا لا تقبلُنْ^٦
فامض شوقًا، محملاً لا تقبلن
واغدُ نَهْرًا، ساحلاً لا تقبلن
في البرايا، ضللاً لا تقبلن
حُرقة، كن مشعلًا، لا تقبلن
قال ربي أزلًا: لا تقبلن
شَوْبَ حقٍّ باطلًا لا تقبلن

(٩) قطعة

إلى عَصَبَاتِ العُرب ما أنا منتَمٍ
فقد علّمتني «الذات» تحليقَ نافرٍ
بعينك أني كافرٌ غير مسلم
فدينك تعدادٌ لأنفاسٍ مُحجِمٍ
تبدّلتَ فالتبديل في الشرع حكمة
فلست أرى في بيدك اليومَ جَنَّةً
إذا حاد عن نار الحياة منغمٍ
ولست بهنديٍّ ولا أنا أعجمي
يَمُرُّ على الدارين غير محوّمٍ
وأنت بعيني كافر غير مسلم
وديني إحراقٌ لأنفاسٍ مقدّم^٧
فليس يطيق الظبيُّ شرعةً ضيغَم^٨
تشبُّ بهذا العقل نارَ التقدّم^٩
فموتُ شعوبٍ لحنٌ هذا المنغم^{١٠}

(١٠) البيضة

خَدُنْ حقَّ تنبّهت فيه «ذات»
نظراتٌ لديه تُشرِّقُ فيها
إليه عبدُ الآفاق! كيف تداني
أنت في البرِّ قاعدٌ عن طِلابٍ
كالحسام المصمّم البراقِ
ما انطوى في الذرّات من أشراق
رجلَ الله صاحب الآفاق
وهو في البحر مَحَرَم الأعماق

(١١) تربية الذات

رَبِّبِ «الذَاتَ» بِالرَّعَايَةِ تُبْصِرْ
إِنْ سَرَّ الْكَلِيمُ فِي الدَّهْرِ بَيْدُ
«كَفَّ تَرْبٍ» يُشِيعُ فِي الْكَوْنِ نَارًا^{١١}
وَشُعَيْبٌ وَالرَّعْيُ لَيْلَ نَهَارًا^{١٢}

(١٢) حرية الفكر

بحرية الأفكار هُلك جماعة
فحرية الأفكار في رأس جاهل
إذا لم يكن فيها تَدَبُّرٌ عَالِمٍ
طَرِيقٌ لِرَدِّ النَّاسِ مِثْلَ الْبَهَائِمِ

(١٣) حياة الذات

إِنَّ الذَّاتُ حَيَّةٌ فَالْفَقِيرُ مَمْلُوكٌ
إِنَّ الذَّاتُ حَيَّةٌ فَالْبَحَارُ ضَحَاحٌ
تَرَى فِي الْحَيَاةِ الْوَحْشَ قَاهِرَ لَجَّةٍ
تَرَى طُغْرًا أَوْ سَنْجَرًا لَا يَشَاكُلُ^{١٣}
إِنَّ الذَّاتُ حَيَّةٌ فَالْحَزُونُ مَخَامِلُ
وَفِي مَوْتِهِ مَوْجُ السَّرَابِ سَلَاسِلُ

(١٤) حكومة^{١٤}

يَرْضَى الْمَرِيدُونَ قَوْلَ حَقٍّ
وَالشَّيْخُ قَوْلَ الْفَقِيرِ يَقْلِي
قَدْ قَعَدَتْ أُمَّةٌ وَبَاءَتْ
إِنْ شَغَلَتْ عَقْلَهَا بِبَحْثِ
دَسْتُورِ ذَا الدَّيْرِ لَيْسَ فِيهِ
لَكِنَّمَا رَاحُهُ نَصِيبُ
الشَّهْدِ عِنْدَ الشَّبَابِ فِيهَا
لَيْسُوا عَنِ الْحَقِّ بِالْعُتَاةِ
وَلَيْسَ لِلْحَقِّ بِالمُؤَاتِي
فِي حَلْبَةِ السَّعْيِ بِالْخَزَاةِ
فَلِسْفَةُ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ
لِلْخَمْرِ وَالشَّرْبِ مِنْ ثَبَاتٍ^{١٥}
لَأُمَّةٍ حُرَّةٍ السَّمَاتِ
الْمَرُّ مِنْ مَوْرِدِ الْحَيَاةِ

(١٥) المدرسة الهندية

إقبال أقصر، هنا لا تُعرَف الذاتُ	فما لمدرسة هذي المقالاتُ
الخير ألا تُرى في عين قُبرة	من البُزاة مقامات وحالات
فلحظة الحرّ عام للذليل فكم	كم تبطئ السيرَ بالعُبدان أوقات
ولحظة الحرّ من خُلد رسالتّه	ولحظة العبد من مَوْتِ فُجاءات
وفكرة الحرّ من حَقٍّ منورة	وفكرة العبد تغشاها الخرافات
كرامة حيّة بالحرّ ماثلة	والعبد من غيره تأتي الكرامات
حسب المُقيّد تعلیمًا وتربية	تصويره ولحون والنباتات ^{١٦}

(١٦) التربية

فرق علم وحياة	ليس فيه من خفاء
هو في الرأس ذكاء	وهي في القلب ذكاء ^{١٧}
قدرة في العلم تبدو	ومتاع وثناء
مُعْضِلٌ أن ليس فيه	في خُطى السير اهتداء
وأولو الأبصار نزر	وأولو العلم زهاء
ليس بدعًا أن كأسًا	لك من راح خلاء
ما طريق الشيخ في المكـ	تب للقلب ضياء ^{١٨}
كيف بالكبريت إشعا	لُ سراج الكهرباء؟

(١٧) الحسن والقبح

هنا رأي لإقبال في الحسن والقبح متصل بفلسفته في الذات وقوتها وعلوها، يقول: ما تدركه الذات في اعتلائها جميل، وما تدركه في استفالها قبيح.

إن للفكر طُلوعًا وغروبًا
عالم الذات به علُو وسُفل
في اعتلاء الذات ما يبدو جميل
كنجوم سابحات في العوالي
واعتراك القبح فيه والجمال
وقبيح ما بدا في الاستفال

(١٨) موت الذات

من ممات الذات في الغرب ظلام
من ممات الذات في العرب خمود
من ممات الذات في الهند جناح
من ممات الذات يُعرى مسلمًا
وبموت الذات في الشرق جذام
ولدى العُجم عروق وعظام
هِيض في الأقفاص والعش حرام
من ثياب سادن البيت الحرام^{١٩}

(١٩) ضيف عزيز

ضمير أولي المدارس في ازدحام
وهذا العصر ماض في هواه
ففي جَنَبَات قلبك أُخِل بيتًا
بأفكار كما امتلأ القفيز
جميلًا من قبيح لا يميز
عسى يثوي به ضيف عزيز^{٢٠}

(٢٠) العصر الحاضر

فأين يصيب المرء ناضج فكرة
مدارس فيها كلُّ عقل محرر
أطاحت بعشق الغرب أفكار ملحد
وأجواء هذا العصر لا تُنضج النَّمَر
ولكن بها الأفكار عَقْد قد انتثر
وعبد عقل الشرق قَوْضى من الفكر

(٢١) طالب العلم

يريد إقبال بالتعليم إيقاظ نفس الطالب وتحريكها وإثارتها للنظر، وحفزها للمطالب العالية، لا تلقينها مسطورات الكتب؛ فهو يقول:

الله يَحْبُوكِ عِلْمًا	بمائنات العُبابِ
فإنَّ بحركَ رَهْوَ	ما يُبْتَلَى باضطراب
لن تستطيع فراغًا	في السُّفر من أبواب
فأنت قاري كتاب	ولست أهل كتاب

(٢٢) امتحان ...

في الأبيات التالية يضرب إقبال مثلًا لرأيه في أن الكد والجهد يقويان الإنسان ويرفعانه، وأن الحياة لا تكمل دون عناء يمثل بالنهر المنحدر من الجبل يهوي من صخر إلى صخر إلخ.

قال نهر الطود يومًا للحجر:	بسقوط وانتكاس تفتخر!
أنت للأقدام والغمّ لَقَى	وأنا يشتاقني بحرٌ وبر
لم تَدْهَدْ من جِدَارٍ مرّة	كيف تُدرى أزجاجُ أم حجر؟

(٢٣) المدرسة

يقول إقبال: إن المدارس وسيلة إلى الوظائف وسبيل إلى المعيش، وهي لا تقدم بالإنسان على جهاد الحياة بل تهبط بالفطرة، وتحجب عن الإنسان أسرار الخليقة، وإن يكن عنى مدارس الهند فما أشبه كثيرًا من المدارس بها.

مَلِكُ الموتِ عصرُنَا يتوفى	كلَّ نفس بفكرةٍ في المعاش
يَرْجُف القلب من كفاح حياة	وهي مَوْتُ لَمْشَفِقٍ من هِراش

أبعدَ الدرسُ عن حِجَاكِ جُنُونًا صَاحَ بالعقل: لا تَلْذِ بِنِقَاشٍ^{٢١}
عينُ صقرٍ مُنْحَتَهَا وعليها وضع الرق نظرة الخفاش
حجبت دونك المدارس سرًّا هو في البيد والرواسخ فاش

(٢٤) الحكيم نيتشه

إقبال يعجب بنيتشه الفيلسوف الألماني وفي فلسفته شبه بفلسفته، ولكنه يأخذ عليه أنه عرف العقل لا القلب، وأدرك العلم لا العشق، وهنا يقول: لم يكن «لنكتة التوحيد أهلاً، وإنه كان ضرورة عفا ولكن كان يتشوف إلى لذة الإثم فيكثر الحديث عنها (انظر المقدمة).

أي قدر لذا الحكيم ولكن لم يكن أهل نكتة التوحيد
ليس إلا لذي البصيرة يبدو سرُّ معنَى بـ «لا إله» بعيد
أرسل الفكرَ أسهمًا في سماءٍ وحوى الشمسَ بالخيال المديد
طاهرُ الطين في الترهّب لكن لذة الإثم نُصِبُ طَرَفٍ حديد

(٢٥) الأساتذة

إن كان تربيةً الياقوتِ مقصِدنا فما شعاعُ رَمَتِه الشمسُ حيرانُ^{٢٢}
وما المدارس أو ما الدارسون بها وللروايات عمَّ الأرضُ إذعان
كانت جديرًا بقود العصر أدمغةً يقودها العصر ما فيهن نُكران

(٢٦) قطعة

يبلغ المنزلَ سارٍ لا ينام مُسرِّجُ عينٍ هزْبِرٍ في الظلام

إِنَّمَا لِلْعَبْدِ تُمْنَى رَاحَةٌ ليس للحرِّ على الأرض حَمَام
قد أزاغ العينَ في الغرب سَنًا لك من صاحب «ما زاغ» إمام^{٢٣}
ذاكم الحفل الذي أكؤسه كنجوم، لَمَحَةٌ فيه المُقام
أَعَمَّتِ الأسفارُ حِسًّا فالصَّبَا لم تعطرَّ لك مَن روضِ مشام^{٢٤}

(٢٧) الدين والتعليم

قد عرفنا قدرَ أشياخِ الحَرَمِ كلُّ دعوى دون إخلاصٍ سَقَم
ولتعليمِ النصارى نغَمٌ ليس من دينٍ وخلقٍ ذا النَغَم
تكتبُ الذلَّ على أقدارها أُمَّةٌ بالذاتِ فيها لا تُهَمُّ
ربما تَغْفِرُ للفردِ ولا تغفِرُ الفطرةَ آثامِ الأمم

(٢٨) إلى جاويد

جاويد ابن الشاعر وباسمه نظم «جاويد نامه» الديوان الخالد، وجاويد اليوم يطلب العلم في لندن أرسلته إليها حكومة باكستان.
والأبيات الآتية معارضة لشعر نظامي الجنزي (الكنجوي) الذي ينصح فيه ابنه، وقد ختم إقبال كل قسم من الأقسام الثلاثة الآتية التي قسم إليها نصيحة جاويد ببيت فارسي من أبيات نظامي التي نصح بها ابنه، ونظامي من أئمة شعراء الفرس.

١

حَرَبٌ على الأديان ذا الزمانُ مرَّكَبٌ في طبعه الكفرانُ
سُدَّةُ أهلِ الله — فاطلُبُنها — أرفعُ مما شَيَّدَ السلطانُ
لكنه «والحقُّ» عصرٌ سحر السحرُ في أموره ميزانُ
عينُ الحياةِ ماؤها نَضُوبٌ فأين راحُ الليلِ والرَّيحانُ

من كان في نظرتهم سِهامٌ منهم خلا الكُتَّاب والديوان
 لكنما الدار التي سراج أنت لها مذاقُها عرفان^{٢٥}
 إن تك «لا إله» في ضمير فالغرب من تعليمه أمان
 عُشَّك فوق «الذات» أحكمنه ثم اطرَبن ما شاءت الأعصان
 الآدمي يا بني بحرٌ في كل قطرة به طوفان
 من حبة ترى ألوفَ حبٍّ إمَّا جفا راحته الدهقان
 لا تغفلن فلات حين لعبٍ
 العلم حصِّل واستهن بالصعب

٢

إن لم يكن في الصدر حرُّ قلب لم تنضج الحياة في هُمام
 إن ينشط الغزال في ذكاء لم يظفر الصياد بالمَرام^{٢٦}
 ماء الحياة ها هنا قريب طريقه حرارة الإقدام^{٢٧}
 في غيرة أرى طريق حقٍّ الفقر بالغيرة في تمام
 يا قرّة الأعين مستحيلٌ لباشق ضراعة الحَمام^{٢٨}
 ليس المقال في الأنام نزرًا كم أنوري عندهم وجامي^{٢٩}
 وإنما بين الورى متاعي نواح خالٍ في دُجى الظلام
 وصدق أقوال بها تراني في نظر الدنيا من الكرام
 موهبة الخلاق لا تُراثٌ نباهة الذكر على الأيام
 لنور عينيه يقول نصًّا ما أجمل المقال من نظامي^{٣٠}

أبوّتي ليست بذات بالٍ
 في حلبة السبق إلى المعالي

عبءٌ على المؤمنِ ذي الليالي الدينُ والدولةُ فعلٌ هازي
ولا أرى نشوان في كفاح فليس إلا كَلِمٌ نَوَازي
فإن تكن ذا همة فأقدم وابتغ فقرًا أصله حجازي^{٣١}
الآدميُّ منه في صفاتٍ كالله مستغنٍ بلا إعواز
هذا المَقام للْبُغاثِ حَتَفَ فإنما هذا مقام البازي
تُضيء عينُ العقل من سَنَاهُ ما بَابن سينا كُجِلَت والرازي
سطوة «محمود» تُصيب فيه إن لم يكن طَبْعُك من إِيَّاز^{٣٢}
فذاك في دنياك إسرافيلُ من نَقَخَات الناي في اشمئزاز^{٣٣}
نظرته المثيرة الليالي ساريةً بالكون في ارتجاز
وصاحب الفقر الغيور هذا بلا سلاح في الزمان غازي
إمارة المؤمن فيه سرُّ
عطيةُ الوهاب هذا الفقر

هوامش

- (١) كتبت في بهوبال في رياض منزل «دار السيد راس مسعود».
- (٢) هذا رأي إقبال.
- (٣) النكزة عضة الحية، والشجاع نوع من الحيات.
- (٤) أرفع منزلاً من الفلك.
- (٥) السامري الذي صنع لقوم موسى عجلًا من الذهب ودعاهم إلى عبادته، فنه سحر وضلال.
- (٦) القافية مردوفة، والروي اللام في منزلاً وساحلاً إلخ.
- (٧) أنت تدين بالسكون والإحجام فحياتك عد أنفاس، وأنا أدین بالجد والإقدام فحياتي إحراق أنفاس.
- (٨) كرر إقبال هذا المعنى، يقول: إن الجماعة إذا ضعفت لم تستطع السير على شريعة القوة فهي تعمل في تبديلها بدل أن تبدل نفسها.

(٩) يرمز إلى هيام مجنون ليل في البیداء، والجنون في شعر إقبال الإقدام في غير مبالاة.

(١٠) إذا لم تكن الألحان ناطقة بحرقة الحياة وكدها فهي مميتة للهمم.

(١١) تكثر الكناية عن الإنسان بكف من تراب أو قبضة من تراب.

(١٢) يعني فسحة البیداء وتربية روح عظيمة كشعيب، والجد الدائب.

(١٣) طغرل وسنجر من ملوك السلاجقة.

(١٤) بمعنى حكم.

(١٥) يکنى عن الدنيا بالدير القديم، وقد حذفت القديم في الترجمة.

(١٦) يعني حسب الدليل أن يعنى بهذه العلوم والفنون، لا تدرك نفسه معاني

الحياة السامية التي تسيطر بها على العالم.

(١٧) نكاء: اتقاد.

(١٨) المكتب: المدرسة، وفي تركيا المدرسة خاصة بالعلوم الدينية، والمكتب لما

يسمى مدرسة في مصر، والكلمة بعينها في الأصل.

(١٩) في الأصل «شيخ الحرم يبيع ثوب الإحرام ويأكله» والمعنى أن موت الذات

قعدت بالمقيمين في الحرم عن المساعي وسوغت لهم سفاسف الأمور فطوعت لهم أنفسهم أن يأخذوا ثوب الإحرام؛ ليعيشوا به.

(٢٠) ينبغي أن يخلو القلب حيناً من الأفكار المتزاحمة التي تشغله ليفزع للواردات

النفسية والمعاني الروحية العالية.

(٢١) جنون يقول للعقل أقدم ولا تتعلل بالجدل وتلذ بالمعاذير.

(٢٢) يقول الطبيعويون القدماء: إن العقيق والياقوت ونحوهما من الأحجار

النفيسة تنضج بأشعة الشمس. ويقول إقبال: إن كان القصد تربية النشء فلا تجدي هذه الأشعة الحائرة المتفرقة، تربية النشء تقتضي أن يؤثر الأساتذة في التلاميذ تأثير أشعة الشمس المتجمعة في الأحجار النفيسة.

(٢٣) يشير إلى الآية في سورة «النجم» ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾، وصاحب ما

زاغ هو الرسول عليه السلام.

(٢٤) يعني أن العكوف على الكتب أمات الحس، فالصبا تمر على الروض وتأتي

إليك فلا تشم رائحة الروض فيها، حجبت الكتب عن النفس إدراك المعاني الروحية العالية وأغفلت الإنسان عن وحي الكون.

ضرب الكليم

(٢٥) يعني دار إقبال التي نشأ بها جاوید.
(٢٦) إنما يصاد الصيد حين يغفل أو يبطئ، فإن كان يقظاً وثاباً لا يظفر به
الصيد، فالإنسان لا تخضعه الحادثات إن صحبه الذكاء والإقدام.

متى تحمل القلب الذكي وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم
(٢٧) ماء الحياة يوجد في هذه الدنيا والسييل إليه الجد والكد، وشدة العطش،
كما قال في رسالة المشرق:

غصن الحياة ندى من ظمئنا في الطلاب

(٢٨) الباشق ضرب من الطيور الجوارح، ولا يذل الباشق كالحمام، فكذلك الكرام
لا تضرع ضراعة الحمام.
(٢٩) ليس الكلام في الناس قليلاً فكم فيهم من شاعر مثل الأنوري والجامي،
وهما من كبار شعراء الفرس.
(٣٠) نظامي شاعر فارسي كبير ذكر في مقدمة هذه الأبيات.
(٣١) فقر نسب إلى الرسول الحجازي، راجع المقدمة في الكلام على الفقر.
(٣٢) السلطان محمود بن سبكتكين وغلame إياز يشيع ذكرهما في الآداب الإسلامية
الشرقية، وضرب محمود وإياز هنا مثلاً للعظمة والحقارة.
(٣٣) فذاك، إشارة إلى الفقر؛ فنفسه لا يلائم الناي ولكن صور إسرافيل.

الفصل الثالث

المرأة

(١) الرجل الإفرنجي

كم حكيم قد تمنى حلّه
لا تلمّها في فساد شائع
عشرة الإفرنج نهج مُفسد
مشكل المرأة في هذي الحياة
شهدت بالطهر كل النّيّرات
جهل الحمقى طباع المحصّنات

(٢) سؤال

إلى عالم الغرب من أسلست
كمال معاشرّة عندكم
له الروم والهند يزجى سؤال:
حيال النساء وعطل الرجال؟^١

(٣) حجاب

أرى فلگا كلّ حين لّلون
ولا فرق ما بين عرس وعرس
ولم يزل الناس رهن حجاب
ولم تنض دنياك هذا الأهاب
فذي في نقاب وذا في نقاب^٢
ومن برزت ذاته من حجاب؟

(٤) الخلوة

فَصَحَّ الْعَصْرَ جِنَّةً بِالسُّفُورِ نُورُ عَيْنٍ وَظُلْمَةٌ فِي الصُّدُورِ
إِنْ تَجَزَّ مَتْعَةُ الْعَيُونِ مَدَاهَا كَانَ فِيهَا الشَّتَاتُ فِي التَّفْكِيرِ
قَطْرَةُ الْمَاءِ لَا تُحَوِّلُ دُرًّا دُونَ أَصْدَافِهَا بِقَاعِ الْبُحُورِ
تُمْسِكُ الذَّاتُ نَفْسَهَا حِينَ تَخْلُو لَا خِلَاءَ بِمَسْجِدٍ أَوْ دِيُورِ

(٥) المرأة

إِنَّمَا الْمَرْأَةُ لَوْنٌ فِي رَسُومِ الْكَائِنَاتِ
لَحْنُهَا يَنْفُثُ نَارَ الْـ وَجَدَ فِي صَدْرِ الْحَيَاةِ
ذَلِكَ الطَّيْنُ تَعَالَى فَوْقَ أَوْجِ النَّيِّرَاتِ
إِنَّهَا دَرَجٌ لَدِيهَا كُلُّ دُرٍّ مِنْ صِفَاتِ
مَا لِأَفْلَاطُونٍ تَرْوِي مِنْ قَضَايَا مَعْضَلَاتِ
وَهُوَ مِنْهَا كَشَرَارٌ مِنْ ذَكِيِّ الْجَمَرَاتِ^٣

(٦) حرية النساء

قَضِيَّةٌ عَصِرَ لَسْتُ فِيهَا بِفَيْصَلٍ وَإِنْ كُنْتُ بَيْنَ الشَّهْدِ وَالسِّمِّ أَفْرِقُ
وَمَا نَفَعُ أَقْوَالُ تَزِيدَ مَلَامَتِي وَقَبْلًا بَنُو التَّمْدِينِ عَنِّي تَفَرَّقُوا
يَبِينُ هَذَا السِّرُّ وَجِدَانُ مَرْأَةٍ وَيَعْجِزُ عَنْهُ فِي الرِّجَالِ الْمُحَقِّقُ
أَحْرِيَّةُ النِّسْوَانِ أَجْمَلُ زِينَةٍ أَمْ الْجَيِّدُ بِالْدَّرِّ الثَّمِينِ يَطْوَقُ^٤

(٧) حصانة المرأة

في الصدر حقٌ ليس يُدرّكه
حفظ الأنوثة في يدي رجل
إن غاب هذا الحق عن أمم
من حاز بردَ دِمائه عَصَب
لا العلم يحفظها ولا الحُجُب
فكسوف شمس فيهم كُتُب

(٨) المرأة والتعليم

مَوْتَ الأمومة إن رامت حضارتهم
إن يجعل المرأة التعليم لا امرأة
إن تحرم الفتاة الدين مدرسة
فالموت عاقبة الإنسان في الغرب
فالعلم موت يراه صاحب القلب
فالعلم والفن موت العشق والحب^٥

(٩) المرأة

بغيره يتجلّى جوهرُ امرأة
حرارة الشوق سرٌّ في بلابلها
من هذه النار أسرارُ الحياة بدت
كذلكم في فؤادي للنساء أسى
ووحده يتجلّى جوهرُ الرجل
كيانها لذّة التخليق كالشُعَلِ
والخلق والموت منها في وعى زجل
لكنها عقدة أعيت علي الحيل^٦

هوامش

- (١) الحيال: الخلو من الحمل.
- (٢) نقاب الرجل المرأة في هذا البيت يفسره ما في البيت الذي بعده، أن الذات لا تزال في حجاب، والعرس الزوج للرجل والمرأة.
- (٣) يعني أن المرأة لا تتفلسف، ولكن تلد الفلاسفة.

- (٤) هذه قضية لا يفصل فيها إلا المرأة: أحرية المرأة كما نرى اليوم أحب إليها، أو غل عنقها بعقد من اللؤلؤ في رعاية زوج وصيانة بيت؟
- (٥) إن أغفلت المدرسة الدين الذي يحفظ للمرأة حرمتها وحدودها، فعلمها وفنها موت عاطفة المرأة وذهاب الحب الحق.
- (٦) هو كذلك يرثي للمرأة مما أعدتها الفطرة له وما حملتها إياه، ولكن لا حيلة لأحد في هذا.

الفصل الرابع

الأدب والفنون

(١) الدين والفن

والشعر والنثر والتحرير والكتبُ في صدره يتواری جوهرٌ عَجَبُ لكن لها من وراء الزُّهر مضطرب ^١ أو لم تطق ذاك فهي السُّحر والكذب ^٢ إن جانب الذات فيها الدين والأدبُ	الدين والفن والتدبير والخطبُ كلُّ يُحيط بمكنونٍ يَضُنُّ به؛ ومن ضمير سليل الطين مطلعها إن تحفظ «الذات» هذي فالحياة بها كم أمةٍ تحت هذي الشمس قد خَزِيتُ
--	---

(٢) التخليق

ليست الدنيا بصخر ومَدَرُ من غدير الماء بحرٌ قد زَخَرُ هي أعمارُ خلودٍ في الدهرِ لا عَجِيبٌ إن بدا خَدُنْ سَفَرُ ^٣	جِدَّةُ الدنيا بتجديد الفِكرِ هَمَّةُ الغائض في «الذات» لها قاهرُ الأيام مَن أنفاسه ريحُ أصحاب من البید أَّتت
---	--

(٣) جنون

واهنُ البيت شاعرٌ وفقّيه
في طمّاح الجنون أيُّ كمالٍ
فله في الدروس أيضًا مجالٌ
وطوى البيدَ — ويحه — المجنونُ
حين تعدو البيداء منه فنونُ
ليس وقفًا على الفيافي الجنون

(٤) إلى شعره ...

لِي من فعلك شكوى:
شِغْتَ عن قلبي فالأسـ
لا تكن مثلَ شرار
والتمس خلوة صدر
همتَ في حُبِّ الطلوعِ
رار عن قلبي تشيع
ندّ عن نارٍ يضيع
فيه من نار ضلوع

(٥) مسجد باريس

يا نظري لا يخدعَنَّ فنُّه
وليس هذا حرّمًا لكنه
قد أخفت الإفرنج روحَ موثَّن
إن الذي شيّد هذا موثَّنًا
للزور هذا الحرّم المغرَّبُ
عند الفرنج للغرام ملعب
في صورة من حرّم تُكذَّبُ
دمشق من عدوانه تخرَّبُ

(٦) الأدب^٦

بهذا يجمل الشاعر طريقة الأدب الحديث، فهو مزاج من القلب والعقل، وهو يجدد الروح في صور قديمة أو يحرر من التقليد الأرواح العتيقة.

رَأَيْتُ الْعَشْقَ يَقْفُو الْيَوْمَ نَهْجًا مِنْ الْعَقْلِ الْإِلَهِيِّ الْقَوِيمِ
وَلَيْسَ يُرِيقُ مَاءَ الْوَجْهِ ذَلًّا عَلَى عَتَبَاتِ مُحِبِّبٍ غَرِيمِ
مَحَا التَّقْلِيدَ فِي رُوحٍ قَدِيمِ وَأَحْيَا الرُّوحَ فِي جَسَدٍ قَدِيمِ

(٧) البصيرة

الرَّبِيعُ النَّضِيرُ مِلْءُ الْفَضَاءِ وَجِيُوشُ الشَّقِيقِ فِي الصَّحْرَاءِ
وَشَبَابٌ وَمَتْعَةٌ وَسُرُورٌ وَدَلَالٌ وَنَشْوَةٌ بِالْفَتَاءِ^٧
وَعِیُونَ النُّجُومِ فِي حَلَكِ اللَّيْلِ وَسَبْحُ الْأَفْلَاقِ فِي الدَّامَاءِ^٨
وَعَرُوسُ الْهَلَالِ فِي هُودَجِ اللَّيْلِ تَهَادَى بِمُوكِبٍ لِلْقَاءِ
وَتَبَدَّى ذُكَاءٌ فِي رَوْنَقِ الصَّبْحِ وَصَمْتُ الْأَفْلَاقِ فِي ذَا الرُّوَاءِ
سَرَّحَ الْعَيْنَ، لَا تَكْلُفُ أَجْرًا لَا يَبَاعُ الْجَمَالُ فِي ذَا الْفَضَاءِ

(٨) مسجد قوة الإسلام^٩

تَمَلَّأَ صَدْرِي هَمُومٌ مَفْتُودٍ لَمْ يَبْقَ إِلَّا اذْكَارُ مَفْقُودٍ^{١٠}
قَدْ خَمَدَتْ «لَا إِلَهَ» لَا حُرْقُ وَلَا تَجَلُّ نَوَاءً مَلْحُودٍ
فِي الْخَلْقِ كُلِّ الْعِیُونَ تَنْكَرْنِي أَعْيَا إِيَّازًا مَقَامُ مَحْمُودٍ^{١١}
مَنْ صَخَّرَ الْمُسْلِمُونَ فِي خَجَلٍ لَجُوهَرٍ كَالزَّجَاجِ مَعْدُودٍ^{١٢}
فَإِنَّمَا كُفَّاءٌ مَا تُمَثِّلُهُ صَلَاةُ حُرٍّ رَبِيبٍ تَوْحِيدٍ
جَلَالُ تَكْبِيرِهِ لَنَظَرِ أَذُنٍ فِيهِ وَغَى هَالِكٍ وَمَوْجُودٍ
وَمَا صَلَاتِي بِقَلْبِ ذِي حُرْقٍ وَلَا دُعَائِي دَعَاءَ مَعْمُودٍ
وَلَا أَذَانِي جَلَالُ مَقْتَدِرٍ فَكَيْفَ تَرْضَى سَجُودَ رَعِيدٍ

(٩) مسرح

تضيء حريم وجودك ذاتك لها فوق أوج الثريا مقام
 جليت بها وتجلت صفاتك آمن «ذات» غيرك تعمّر قلباً
 معاذ الإله! ترى أين ذاتك؟ فلا تبعثن وثنها بعد موت
 فتحيا مناتك فيها ولاتك^{١٢} كمال المحاكاة أنك تفنى
 فيكيفك هم الحياة مماتك^{١٤}

(١٠) شعاع الأمل

لعل الشاعر يمضي نفسه بشعاع الأمل. الشمس يئست من إضاءة في الشرق أو الغرب
 فدعت أشعتها إليها، فجاءت الأشعة إلى صدر أمها معترفة بياسها إلا شعاعاً جريئاً
 يقول للشمس: «ذريني أضيء الشرق، ولا تيأسي؛ فكل ليل إلى صباح». الشاعر يرى في
 أمله ودعوته في الشرق هذا الشعاع.

١

تنادي أشعتها في ضجر عجت لدنيا نهار وليل
 عجت لدنيا نهار وليل إلام الهيام بهذا الفضاء
 نكاء وتجمع منها النشر^{١٥} فلا دعة في اتقاد برمل
 عجت لدنيا نهار وليل طواف ولا دعة في دوام طواف
 وجور الزمان بكن استمر تلاً ذراته كالشرر
 طواف الصبا في رياض الزهر تجمعن في صدري المستنير
 ودعن البداءة ودعن الحضر

٢

تداعى الأشعةُ من كل صوب
وصاحت: تعذّر في الغرب نورٌ
وفي الشرق قلب بصير ولكن
أنور العوالم! لا تهجّرنا
إلى الشمس تبغي لديها قرارا
دُخان المصانع يكسوه قارا
كعالم غيب بصمتٍ توارى
إلى نور صدرك آوى الحيارى^{١٦}

٣

شُعاعٌ جريءٌ له نظرة
ولا يستقر على حالة
يقول: أضيء على الشرق حتى
وأجلو عن الهند هذا الظلام
ففيها من الشرق آماله
تضيء بها أعين النيرين
وكم عاش في أرضها غائص
فأعور أعوانها عازفٌ
ينام البرهمن في سدة
ومسلمها خذن محرابه
فلا يحزنك من الشرق نوم
قضت فطرة الله أن تبدلي
كنظرة حوراء تغزو الضمير
ترى زئبقاً في ضياء يمور
أرى ذرّه كشموس تنير
فأوقظ نؤامها للنشور
«واقبالها» بالدموع مطير
حساها يلوح كدر منير
يرى كالضاحح لج البحور
وكانت تهيج الجوى في الصدور
لدى مؤنن الزمان يسير
ينوح ومن قدر يستجير
وفي الغرب لا ترهين الشرور^{١٧}
بليل الظلام صباح السفور

(١١) أمل^{١٨}

لا ولا رَبُّ لواء	لستُ من أجناد حرب
دهرُ ثَبَّتُ في اللقاء	بيد أني في صروف الـ
وهُيام وغناء	عُدَّتِي ذكر وفكر
أَمْ سواه ذا العطاء ^{١٩}	لست أدري أهو شعر
في محيَّاه ضياء	إن عبد الحق يُزهِى
الكون منه في امتلاء	من جلال ظلِّ فكرُ
يك كفرًا ذا البلاء:	ليس دون الكفر إن لم
مشهود للحرِّ سباء ^{٢٠}	أن يُرى بالحاضر الـ
دهر أدوارٍ وضاء	لا تذب غمًّا فكم في الـ
سوف تجلوها السماء	كم نجومٍ حادثات

(١٢) البصيرة

شوقُ الظهور يثور في ذرَّاتها	لم تُخَفِ هذي الكائناتُ ضميرَها
تتبدَّلُ الأيامُ في جَلَّواتها ^{٢١}	إن صاحبَ النظراتِ شوقُ بصيرة
أبناءً من خضعوا لها ساداتها	من ذي البصيرة في الليالي قد غدا
عرفت به الذراتُ طيَّ فلاتها ^{٢٢}	من ذي البصيرة لي جنون ثائر
تَحْزَى القلوبُ بنفسه وسماتها	هذي البصيرة لا تيسَّرُ لامرئ

(١٣) إلى أهل الفن

مذهب الشاعر أن الفن ينبغي أن يحرر من محاكاة الطبيعة، وينبغي أن يصور «ذات» صاحب الفن، فالكواكب لمحات من نور لا ثبات لها، و«الذات» العاشقة خالدة، وضمير الإنسان لا تحده الألوان، والذات تخلو للذكر والفكر، وتظهر للشعر والإنشاد غير خاضعة لهذا العالم، والروح المستعبدة فنّها عبد، والروح المقدرة نفسها تسيطر على كل شيء.

وذاثك بالعشق رهْنُ خلودُ	رأيت الكواكبَ لَمحاتِ نور
فعفتَ من اللون كل القيودُ	تعالى ضميرك عن كل لون
ومحضرها شعرها والنشيدُ	وغيبَةُ ذاتك ذكر وفكر
ففننكُ عبدٌ رهينُ سجدُ	إذا أضنتَ الروحَ آلامُ رَقُّ
على الجن والإنس ربَّ الجنودُ	وإن عرفت قدرها كنتَ حقًّا

(١٤) قطعة

وعلى الساحل الصَّموتُ غُثاءُ ^{٢٣}	ثائرُ الموج كما لدى البحر درُّ
رَطبةُ العُود هذه القَصَباءُ ^{٢٤}	في شَراري سنا البروقِ ولكن
ليس يا غِرُّ! للنجوم غناء	ولك الوقت والتصرُّف فيه
فيه رَفوُّ لما يشقُّ القضاء ^{٢٥}	قد رأينا عجيبةً من جنون
دون مَن الكروم فيه انتِشاء ^{٢٦}	إنما الكامل الخلعة شهمُ
خمرةٌ للشعور منها جلاء ^{٢٧}	وإلى اليوم حانَّةُ الشرق فيها
ب ففيتها بَواطِنُ سَوداء	يئس المبصرون من أمم الغر

(١٥) الوجود

لستَ تدري ما مَقاماتُ الوجودِ	أنت تحت الشمس تَمضي كشرار
ويلُ تصويرٍ وشِدوٍ وقصيدُ	ليس في فنِّك للذات بناء
درس إفناء به الذات تبيدُ	ليس في المكتب والحانة إلا
لحياة ودوام وخلودُ	ليت شعري هل تعلمتَ وجودًا

(١٦) الغناء

صَوْتُ عُوْدٍ ذَاكَ أَمْ مِنْ قَلْبٍ حَيٍّ؟	صَاحٍ مِنْ أَيْنَ لِنَايٍ نَشْوَةٍ؟
قُوَّةٌ سَكْرَى تَحَدَّثُ كُلَّ شَيْءٍ	صَاحٍ مَا الْقَلْبُ؟ وَمِنْ أَيْنَ لَهُ
مِثْلَ رِيحٍ صَرَصَرٍ فِي تَحْتِ كَيْ ٢٨	وَلِمَاذَا نَظْرَةٌ مِنْهُ سَرَتْ
مِنْ حَيَاةٍ فِيهِ يَحْيَا كُلُّ حَيٍّ ٢٩	وَلِمَاذَا ذَلِكَ السَّرُّ لَهُ:
وَارِدَاتٍ زُمَرًا تَهْفُو إِلَى	وَلِمَاذَا كُلُّ حَيْنٍ مَبْدَلٌ
مَلِكٍ رُومٍ وَمُنَى شَامٍ وَرِيٍّ	وَلِمَاذَا صَاحِبُ الْقَلْبِ أَزْدَرَى
طُوبَى الْفَنِّ لَهُ أَسْرَعَ طَيٍّ ٣٠	إِنْ وَعَى لِلْقَلْبِ رَمْزًا مَطْرَبٌ

(١٧) النسيم والندى

النسيم:

لَمْ أَرَقْ فِي فَلَكَ النُّجُومَ وَإِنِّي	فِي شَقِّ أَثْوَابِ الْأَزَاهِرِ أَعْمَلُ
وَأَسِيرُ عَنْ وَطَنِي غَرِيبًا مُجْبَرًا	فِي مَسْمَعِي شَدُو الْبَلَابِلِ يَثْقُلُ
قَلْبِي؛ فَقَدْ أُعْطِيتَ سَرَّ كُلِيهِمَا	الْمَرْجُ أَمْ فَلَكِ الْكَوَاكِبُ أَجْمَلُ

الندى:

لو لم تكن في المرج رهناً هشيمه لرأيته سرَّ الكواكب يحمل ٣١

(١٨) أهرام مصر

في هذه الأبيات يشيد إقبال بالإنسان وقدرته على الإبداع ويشير إلى ما قال في أبيات أخرى من أن صاحب الفن لا يحاكي الطبيعة بل يسيطر عليها ويؤثر فيها.

شادت الفِطرة كُثبانًا لها في سُكونٍ من يَبابٍ قد وَقَدَ
رَوَّعَ الأفلاكَ فيه هَرَمٌ أيُّ كَفٍّ صَوَّرتَ هذا الأبدُ!
من إِسار الكون حرَّزَ صنعة صائِدُ ذو الفن أم صيِّدًا يَعدُّ^{٣٢}

(١٩) مخلوقات الفن

قد رأى ذو بصيرٍ سرَّ الذات وجلا الفنَّ لعينٍ جَنَّتِ^{٣٣}
ما به الذات ولا الكون يُرى فهو من جهد حياةٍ في نِجاةٍ^{٣٤}
تعس الكافرُ مَنْ أصنامِه من حُطامٍ لِمِناةٍ واللّاتِ^{٣٥}
هالكٌ صَلَّى عليه فنُّه في ظلام اللحد يرنو للحياة^{٣٦}

(٢٠) إقبال

جلال الدين الرومي أكبر شعراء الصوفية، ومجد الدين السنائي طليعة شعراء الصوفية الكبار، ومنصور في لغة صوفية الفرس والهند هو الحسين بن منصور الحلاج الصوفي المعروف، والشاعر يتخيل أن السنائي قال في الجنة للرومي: لا يزال الشرق في أسر القديم. فقال الحلاج: قد ظهر مجذوب أفشى للناس سر الذات فهو حري أن يبدل الحياة في الشرق.

قال للروميّ في الخلد سنائي: لا يزال الشرق بالتقليد يُؤسّر
قال منصور: ولكن قد سمعنا أن سرَّ الذات أفشاه قلندر^{٣٧}

(٢١) الفنون الجميلة

نظّرات الآفاق مُتعة عين سرّحوا العين يا أولي الأبصار

ضرب الكليم

غير أني أقول: ما نظراتُ لا تجلِّي كوامنَ الأسرار^{٣٨}
مقصِدُ الفن في الحياة لهيب أبدئي فما وميضُ الشرار؟^{٣٩}
قطرُ نَيْسان! ما اللآلئ إن لم تتلاطم بها قلوبُ البحار^{٤٠}
ما نسيمُ الصباح في الشعر واللح من إذا ما أذوى سنا الأزهار^{٤١}
ليس إلا الإعجاز يحيا ففنُّ ليس ضربُ الكليم فيه، عواري^{٤٢}

(٢٢) صبح المرج

خلاصة ما يؤخذ من هذه الأبيات أن الإنسان ينبغي أن يعمل في هذه الأرض غير غافل عن عالم الغيب، كضوء الصبح يغطي السهول والجبال ولكنه موصول بالفلك، وعالم الغيب والشهادة ليسا متباعدين كما قال الندي: إن الطيران يعلم أن الأرض ليست بعيدة من السماء.

الزهرة:

وافدَ الأفلاك! هل خلت بعيدًا موطني؟ لا إنه غيرُ بعيد

الندي:

من يطر ما بين أرض وسماء يتبين أنه غيرُ بعيد

الصبح:

أقبلن في الروض كالصبح رقيقًا ليس يؤذي وطؤه قطر الندي
واحضنِ الأجيال والبيد ولكن من عرى الأفلاك لا تحلل يدا

(٢٣) الخاقاني

شاعر فارسي كبير، توفي في تبريز سنة ٥٨٢هـ، وله من الكتب «تحفة العراقيين»، سجل فيها ما رأى في العراقيين العربي والعجمي حينما مر بهما في طريق الحج، وله ديوان، ومنظومة اسمها «هفت إقليم» (الأقاليم السبعة). وهذه الأبيات جاءت في الأصل في القافية المزدوجة وعلى وزن:

مفعول مفاعلن فعولن

وهو ضرب شائع في الشعر الإسلامي الشرقي، وهو مشتق من الأوزان العربية، ولم أجده في الشعر العربي إلا في أبيات لبهاء الدين زهير أولها:

يا من لعبت به شمول ما ألطف هذه الشمائل

وقد ترجمتها على قافيتها ووزنها لأزيد في شعرنا مثلاً في هذا الوزن إلى أبيات زهير:

ذا صاحب تحفة العراقيين	ذو القلب يراه قرة العين
تنشق لفكره الستور	الحجب جميعها تُنير
يجتاز بعالم المعاني	لا يسمع قول: لن تراني ^{٤٣}
فاسأله بذلك التراب	والدهر يجيش في عُباب ^{٤٤}
ذا محرم عالم الثواب	كم دلّ بموجز الخطاب: ^{٤٥}
«ناهيك بشر هذا العالم	إبليس ثوى ومات آدم» ^{٤٦}

(٢٤) الرومي

هو مولانا جلال الدين الرومي صاحب المثنوي، والشاعر يتخذه إماماً ويشيد بذكره في شعره.

ما زال طَرْفُكَ فِي خَلْطٍ وَفِي سِنَةٍ وَعَنْكَ ذَاتُكَ فِي الْأَسْرَارِ لَمْ تَزَلْ
وَلَمْ تَزَلْ فِي صَلَاةٍ لَا قِيَامَ لَهَا وَبِالضَّرَاعَةِ عَزَّ الرُّوحُ لَمْ تَصُلْ^{٤٧}
وَمِزْهَرِ «الذَّاتِ» أَوْتَارُ مَقْطَعَةٍ مَا زَلْتُ عَنْ نَغْمَةِ الرُّومِيِّ فِي شُغْلٍ

(٢٥) الجَدَّة

يرى الشاعر أن الإنسان لا ينفذ ببصره إلى حقائق الأشياء، يقول: إنك إن صدقت النظر فيما حولك رأيت دنيا أخرى جديدة غير التي تراها، وتغير إدراكك هذا العالم وتبين أنه مسخر لك.

إِنْ صَدَقْتُ نَفْسُكَ فِي الدَّهْرِ النَّظْرُ تُنَوِّرُ الْأَفْلَاكُ مِنْكَ فِي الْبُكْرُ
وَتَسْتَضِيءُ الشَّمْسُ مِنْكَ بِالْشَّرَرِ وَيَنْجَلِي قَدْرُكَ فِي سِيَمَا الْقَمَرِ
وَالْبَحْرُ يَلْقَى مِنْكَ مَوْجًا ذَا دُرَرٍ وَتَسْتَحْيِ إِعْجَازَ صُنْعِكَ الْفِطْرِ^{٤٨}
تَخَذْتَ أَفْكَارَ الْوَرَى مَرَاتَكَ فَكَيْفَ لَا تَبْلُغَ حَتَّى ذَاتَكَ^{٤٩}

(٢٦) مِرْزَا بِيْدِل

من شعراء إيران، ذهب إلى الهند أيام السلطان شاه جهان فأكرم السلطان وفادته، وهو شاعر صوفي له ديوان كبير يغلب فيه التعمق وتكثر الدقائق. وقد أعجب إقبال بفكرة في بيت لبديل فبنى عليه هذه الأبيات، وهي أن هذا العالم الحسي لا خطر له بل لا وجود له إلا عند من ضاق عن إدراك الحقائق الكبرى التي يختفي معها هذا العالم، كالخمر يظهر لونها كأس الزجاج لضيقها، وترجمة البيت في النثر: «لو اتسع القلب ما ظهر هذا المرج خرج لون الخمر من شدة ضيق الزجاج.»

ذِي سَمَاءٍ وَجِبَالٍ وَفَجَاجٍ ذَاكَ حَقٌّ أَمْ عَيُونٌ فِي اعْوِجَاجٍ؟
فَرَّقَ الْأَرَاءَ إِثْبَاتٌ وَنَفْيٌ أَهِيَ دُنْيَا أَمْ خَدَاعٌ فِي الْحِجَاجِ؟
عَقْدَةٌ قَدْ حَلَّهَا بِيْدِلُ حَقًّا أَعْجَزْتُ مَنْ قَبْلَهُ كُلَّ عِلَاجِ:
«مَا بَدَا ذَا الْمَرْجُ لَوْ فِي الْقَلْبِ وُسْعٌ بَانَ لَوْنُ الْخَمْرِ مِنْ ضَيْقِ الزَّجَاجِ»

(٢٧) الجلال والجمال

الشاعر من المعجبين بالقوة الداعين إليها، وهو يدعي هنا أن لا جمال بغير جلال، يرى الكمال في شجاعة علي لا في خيال أفلاطون، ويرى سجود السماء للقوة جمالاً — وقد تخيل الشعراء أن انحناء السماء في رأي العين سجود — والنغمة التي لا قوة فيها نفخة ضائعة بل لا يحب أن يُجازى إلا بنار شديدة الالتهاب ...

حَسْبِي كَمَالاً قُوَّةً مِنْ حَيْدَرٍ	وكفك من أفلاطُنَ الإدراكُ
وأرى جمالاً في بهاءٍ إن تُرى	في سجدةٍ للقوة الأفلاكُ
ولنغمةٍ من دون نار نفخة	ما الحسن إلا بالجلال يُحاكُ
لا أرتضي نار الجزاء ولم تكن	وهاجةٌ ولهيبها درَّاكُ

(٢٨) المصوّر

يرى الشاعر أن المصور وكل ذي فن ينبغي أن يظهر ذاته فيما يصور لا أن يحاكي الطبيعة، وأن المحاكاة موت.

قَلَدَ الْغَرْبَ فَنُّ عُجْمٍ وَهِنِ	عَمَّ هَذَا الْبَلَدَ مَوْتُ الْخِيَالِ
شَقَّنِي الْغَمُّ أَنْ بِهِزَادَ عَصْرِي	يُفْقِدُ الشَّرْقُ بِهِجَةً الْأَزَالَ ^{٥٠}
يَا خَبِيرًا بَفَنِّهِ فِيهِ تَمَّتْ	صَنَعَةُ الْعَصْرِ وَالْعُصُورِ الْخَوَالِي
كَمْ تَرَى مِنْ خَلِيقَةٍ وَتُرِيهَا!	أَرْنَا الذَّاتَ فَوْقَ هَذَا الْمَجَالِي

(٢٩) الغناء الحلال

يرى الشاعر أن الغناء وكل لحن، يحل إن كان فيه قوة الذات وحرقة الحياة، ويحرم إن أضعف الذات ولم يقبس من الحياة نارا. الغناء يفتح القلب فكيف يفتحه إن أماته، وفي الأفلاك ألحان طبيعية تذيب النجوم، وتبرئ الإنسان من الخوف والغم، وترفع النفس من العبودية إلى السيادة إلخ، والنغمة الحية التي يحلها فقهاء الذات لا تزال تنتظر مطرباً يعلنها.

تفتح القلب نغمةً من غناء
في صدور الأفلاك لحناً خفياً
يهجر الناس منه خوفٌ وغمٌ
تیه هذي النجوم يفنى ولكن
قد أحلت شريعة الذات لحناً
أي فتح والقلب رهناً همود؟
صاهر حره نجوم الوجود
وإياز يسمو إلى محمود^{٥١}
أنت تبقى ونغمة التوحيد^{٥٢}
لم يزل في انتظار شادٍ مجيد^{٥٣}

(٣٠) الغناء الحرام

ما بذكري من التصوف وجد
قرّب الله مذهبي من فقيه
«إن سرت في اللحن دعوة موت
أو برأيي ثوابهم والعذاب
عرفت عنه سنة وكتاب:
حرم الناي عندنا والرباب»^{٥٤}

(٣١) النافورة

لا يطبيني مسير النهر مطرداً
دع ذاك، وانظر إلى نافورة بسقت
مُسايرًا تربّه جنباً إلى جنب
تصعد الماء منها قوة القلب^{٥٥}

(٣٢) الشاعر

ينفر إقبال من شعر الرخاوة والذلة ويقول هنا: من ضعفت «ذاتهم» فليحترسوا من
ألحان العجم فهي تدعو إلى الرقة والترف.
ولا بد للشعر أن يكون في حدة السيف، ملائمة لمعركة الحياة مهما تكن صورته،
كالخمر في زجاجة أو صراحية، ينبغي أن تكون محرقة، وليس لشوق الشاعر غاية
ففي كل حين طور جديد وبرق للتجلي جديد.

في غابة الشرق نائيً يبتغي نَفْسًا
من كان في ذاته من رَقِّهِ خَوْرٌ
إنّاؤها من زجاج كان أو خزف
لم تبصر الشمس من دنيا يُخال بها
طَوْرٌ جديد، وبرقٌ كلَّ آونةٍ
يا شاعر الشرق هل في صدرك النَّفْسُ؟
فقل له من لُحُونِ الْعُجْمِ يَحْتَرِسُ
اجعل بخمرك سيفًا لَمُعُهُ قَبَسُ
مَجْدٌ بغير الجِلاَدِ المرُّ يُلْتَمَسُ
لا قَرَّبَ الله للعشاق ما التمسوا

(٣٣) شعر العجم

كم بشعر العُجْمِ من سِحْرٍ ولكن
صَمْتُ طير الصبح أولى من غناء
ليس ضربًا ما يشقُّ الطود لكن
ينحت العصر أيا إقبال! صخرًا
منه سيفُ الذات ذو حدٍّ كليلاً
إن سرى باللحن في الرّوض ذبولاً
ليس منه عرش برويز يميل^{٥٦}
فاحذرن من كل ما يُبدي الوذيل^{٥٧}

(٣٤) أصحاب الفن في الهند

تخيّلهم جَنَازَةً كلَّ عشق
ومَوْتَنَهُم به نقش المنايا
يُنِيمُ الرّوح في إيقاظ جسم
يُسَخِّرُ للأنوثة كلَّ شيء
وظلمة فكرهم للحَيِّ قَبْرُ
وليس لفنهم بالعيش خُبْرُ^{٥٨}
ودون المجد يُسَدِّلُ منه سِتْرُ
لهم قَصَصٌ وتصويرٌ وشعرُ^{٥٩}

(٣٥) الرجل العظيم

هو في الحب عميقٌ
قهره فروق عباد الله
وهو في البُغْض عميقٌ
بَرٌّ وشفيق

نشأته ظلمة التقليد	بالناس تحقيق
غير أن الطبع بالإب	داع والخلق خَلِيق
هو في المجمع خال	ومن الحشد طليق
مثلُ شمع الحفل؛ في الـ	حفل وحيد ورفيق ^{٦٠}
مثلُ شمس الصبح؛ فكرُ	فيه نُور وبَريق
لفظه حرُّ يسير	لكن المعنى دقيق
نظرُ فيه سديد	عن بني العصر سحيق
ليس يدري أيُّ حال	فيه أشياخُ الطريق

(٣٦) عالم جديد

الرجل العظيم يرى في منامه أو خياله عالماً جديداً فيعمل عزمه فلا يستعصي عليه أن يحقق في عالم الحقائق ما رأى في الرؤيا أو الخيال. وهذا العالم الجديد الذي يخلقه ناشئ من نفسه، فهيكله جسمه الصغير، وروحه تكبيره وإيمانه وعزمه.

من كان حيَّ القلب في الدنيا فما	يخفى عليه من القضاء ضميرُهُ
تجلو له رؤياه كوناً مُحدَثاً	بدع المثلال يروقه تصويره
فإذا جلا صوتُ الأذان منامه	شاد الذي في حلمه تعبيره
ولهيكل الدنيا الجديدة طينه	هذا الضئيلُ، وروحها تكبيره

(٣٧) خلق المعاني

خلقُ المعاني من الخلاق موهبة	لكنَّ للفنِّ في الفنَّان إجهادا
من حرقه في دم الباني، مشيدة	حانات حافظ أو زونات بهزادا ^{٦١}
ما جوهرٌ يتجلَّى دون مجهدة	من ومضة الفأس نارت دارُ فرهادا

(٣٨) الموسيقى

دلَّ على بردِ دَمِ الْمُغْنِي
أَنْفَاسُ زَامِرٍ سُمُومٌ لَحْنُ
بالشرق والمغرب في رياض
فما مررتُ بينها بِمَرَجٍ
لَحْنٌ لَهُ الْوَجُوهُ لَا تُنِيرُ^{٦٢}
إِنْ كَانَ لَمْ يَطْهُرْ بِهِ ضَمِيرُ^{٦٣}
من الشقيق شاقني المسير
شَقَّتْ بِهِ جَيُوبُهَا الزُّهُورُ^{٦٤}

(٣٩) لذة النظر

أَيُّ ذَاتِ حَوَى فَتَى الصِّينِ مَنْ قَا
مَنْظَرَ رَائِقٍ، تَمَهَّلْ، تَمَهَّلْ
لَ لَجَلَّادِهِ أَمَامَ الْجِمَامِ:
لَأُرَى لَحْظَةً وَمِيْضَ الْحُسَامِ^{٦٥}

(٤٠) الشعر

لَمْ أَدْرِ سِرَّ الشَّعْرِ إِلَّا نَكْتَةً
الشَّعْرُ فِيهِ مِنَ الْحَيَاةِ رِسَالَةٌ
سَيَرُ الشُّعُوبُ تُبَيِّنُهَا تَفْصِيلاً:
أَبْدِيَّةٌ لَا تَقْبَلُ التَّجْدِيلاً
إِنْ كَانَ مِنْ جَبْرِيلَ فِيهِ نَغْمَةٌ
أَوْ كَانَ فِيهِ نَفْخُ إِسْرَافِيلاً^{٦٦}

(٤١) الرقص والموسيقى

إِنَّ لِلشَّعْرِ بِهَجَةٍ ضَاءَ مِنْهَا
وَمِنَ الْمَوْسِيقَى ابْتِهَاجٌ وَشَوْقٌ
قَدْ سَمِعْنَا فِي الصِّينِ قَوْلَ حَكِيمٍ
إِنَّ لِلْمَوْسِيقَى مِنَ الشَّعْرِ رُوحًا
رُوحُ جَبْرِيلَ وَالرَّجِيمُ اللَّعِينُ
وَكَذَا الرِّقْصُ نَشْوَةٌ وَفَتُونُ
فِيهِ أَفْشَى مَخْبَّاتِ الْفُنُونِ:
وَمِنَ الرِّقْصِ جِسْمُهَا فِي الْعْيُونِ

(٤٢) ضبط النفس

دأبُّ أهل الزمان شكوى الزمان ليس للحرِّ آهةٌ في طعانٍ
قد أسرَّ النجوى إليَّ عليمٌ من شيوخ القلوب والعرفان:
إنَّ كَظَمَ النُّواحِ شِيمَةً ليثٍ ومن النُّوحِ شِيمَةَ الثعلبانِ

(٤٣) الرقص

دع لأهل الغرب رقصًا بجسوم إنَّ رقصَ الروح من ضرب الكليمِ
فبهذا الرقص سُلطان وفقر وبذاك الرقص همٌّ لا يَريمُ

هوامش

- (١) سليل الطين: الإنسان.
- (٢) الدين وسائر ما ذكره في البيت الأول مقصدها حفظ الذات إلخ.
- (٣) يعجب إقبال بالبادية؛ لأن الذات فيها أقوى، ولذكرى الرسول وأصحابه الذين أخرجوا للعالم الحياة والقوة، وهو يجد من البادية ريحًا تبشر بصاحب مسعد له يدعو دعوته ويحقق أمله.
- (٤) إن تجاوز البيداء إلى الحضر فنونه، وفيه إشارة إلى مجنون ليلى.
- (٥) الموثن: معبد الأوثان.
- (٦) كتبت في بهوبال — رياض منزل «دار السيد راس مسعود».
- (٧) الفتاء: الشباب.
- (٨) الدأماء: البحر.
- (٩) مسجد عظيم شامخ في دهلي هدمت بعض جدره.
- (١٠) المفئود: حزين الفؤاد.
- (١١) السلطان محمود وإياز مولاه، أي لا ينال العبد مقام السيد.
- (١٢) لجوهرهم الضعيف كالزجاج.

- (١٣) الوثن جمع وَثْن، ومناة واللات صنمان ذكرا في القرآن.
- (١٤) كمال التمثيل أن يفنى الممثل فيما يمثله، فعليك أن تفنى فيمن تحاكيه ما دمت مقلداً فتستريح من عناء الحياة.
- (١٥) النشر: المنتشر المتفرق.
- (١٦) الخطاب للشمس.
- (١٧) الخطاب للشمس.
- (١٨) كتب في بهوبال — رياض منزل «دار السيد راس مسعود».
- (١٩) هو يدري أنه وهبه الذكر والفكر والهيام والغناء ولا يدري أهذا شعر أم شيء آخر.
- (٢٠) ليس أقل من الكفر أن يأسر الحر ما يراه ويشهده فيقيد به فكره وعمله، فالحر لا يقيده ما يسمى «الأمر الواقع».
- (٢١) يعني أن نظرة البصيرة تنفذ إلى حقائق الأشياء فترى الدنيا على غير صورتها الظاهرة.
- (٢٢) الجنون: هو الحماس والإقدام، ويعني الشاعر أن بهذه البصيرة ثار هذا الجنون في نفسه فهذه الذرات التي تطوي الفلاة تعلمت من جنونه طي الفلاة، والشاعر يقرن الجنون بالفلاة؛ إشارة إلى قصة مجنون ليلى (تراجع المقدمة في معنى الجنون).
- (٢٣) الدر في ثورة الموج وليس في سكون الساحل إلا الغناء فالحياة جد وكد، لا سكون.
- (٢٤) شراري يحرق كالبرق، ولكن هذه النفوس كالقصب الرطب لا تشتعل.
- (٢٥) بعض الجنون يغير ما يظنه الناس قضاء، فهو يرفو ما يمزقه القضاء، أي يصلح في هذا العالم منذلاً للطبيعة وما يحسبه الناس قضاءً وقدراً في هذا الكون.
- (٢٦) رجل نشوان بفكره وعمله مقدم بنفسه في غنى عمن يؤثر فيه سكران بغير خمر.
- (٢٧) الخمر المؤثرة تحجب الشعور ولكن خمرة الشرق لا تؤثر فهي تزيد الشعور جلاء.
- (٢٨) كي: كيكأوس أحد ملوك الفرس القدماء، وفي الأساطير أنه كان له تخت يطير به.
- (٢٩) لماذا خص القلب بهذا السر، أن بحياته تحيا الأمم.

(٣٠) إن عرف المطرب رمز القلب فأرسل في نغماته خفقات القلوب، طوى مراحل الفن فبلغ غايته دون عناء.

(٣١) يسأل النسيم الندى وقد هبط من السماء إلى المرج: أيهما أجمل؟ فيقول الندى: لو لم تتعلق بالهشيم، وتقف عند المظاهر لرأيت في المرج سر الكواكب وما وجدت فرقاً بين السماء والمرج.

(٣٢) لم يحاك باني الهرم كثنان الرمال، بل شاد هذا الأثر الخالد، فحرر الصنعة من أسر الخليقة، فإن صاحب الفن صائد لا صيد، يأسر الخليقة ولا تأسره.

(٣٣) ذات الإنسان أو مركز وجوده «خودي» في فلسفة إقبال.

(٣٤) ليس في هذا الفن الذات ولا فيه عالم الصباح والمساء فهو فرار من جهاد الحياة.

(٣٥) المقلد في هذا الفن يتخذ أصناماً من بقايا أصنام محطمة كانت في الأعصر الخالية.

(٣٦) في الأصل: أنت ميت وفنك أمام جنازتك.

(٣٧) راجع المقدمة في معنى قلندر.

(٣٨) إن لم تنفذ نظرات صاحب الفن إلى حقائق الأشياء فما هي بمجدية.

(٣٩) الفن يصور لهيب الحياة الأبدي، فلا قيمة للفن الذي يخرج شراراً لا يلبث أن يطفأ.

(٤٠) قطر المطر في نيسان يخلق منه الدر في الصدف، يقول الشاعر: يا قطر نيسان ما قيمة الدر الذي لا يضطرب له قلب البحر؟ يعني أن بدائع الفن ينبغي أن يجيش لها قلب العالم.

(٤١) إن كان نسيم الصبح المتمثل في إنشاد الشاعر ولحن المغني يذبل الزهر في الروضة ولا ينضره؛ فأى نسيم هو؟!

(٤٢) حياة الأمم بالإعجاز، فالفن الذي لا إعجاز فيه عارية لا دوام لها.

(٤٣) ينكشف له عالم المعاني فلا يسمع منه «لن تراني»، وهذا رمز إلى الآلة في قصة موسى: ﴿قَالَ لَنْ تَرَاني﴾.

(٤٤) أسأله عن هذا العالم الأرضي وعن حوادث الدهر، وفي القرآن الكريم ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا﴾ أي أسأل عنه.

(٤٥) المحرم المطلع على السر، واستعملها شعراء الفرس وغيرهم فأقررتها في العربية وليست بعيدة من المعنى الأصلي.

(٤٦) حسبك تعريفاً بهذا العالم أن آدم مات وبقي إبليس أي بقيت نزعات الشر في هذا العالم، فهو عالم محنة وجهاد، وهذا البيت مضمن من شعر الخاقاني.
(٤٧) الصلاة قيام وسجود، يقول الشاعر: إنهما رمز الدلال والضراعة «ناز ونيان»؛ أي الخضوع والسيادة، ولكن بعض الناس صلاتهم سجود بغير قيام ... إلخ.
(٤٨) تستحي الخليفة من صنعك المعجز، تراه أحسن منها.
(٤٩) إنك استعرت أفكار الناس فلم تبلغ في هذه الحياة حتى ذاتك؛ فقد أضعفتها بالتقليد.

(٥٠) بهزاد مصور فارسي مشهور نبغ أيام الدولة الصفوية، والشاعر يغتم؛ لأن بهزاد عصره يقلد الغرب فيفقد الشرق البهجة القديمة.
(٥١) السلطان محمود بن سبكتكين وخادمه إياز.
(٥٢) يشبه عالم الكواكب بالتيه ويقول: إنه يفنى ويبقى الإنسان ونغمته الموحدة.
(٥٣) اللحن الذي أحلته شريعة الذات وهو الذي يحيي النفوس ويقويها لم يظفر به أحد فلا يزال ينتظر مطرباً.

(٥٤) هذا مذهب؛ الألحان التي تميمت النفوس حرام.
(٥٥) لا يعجب الشاعر بالنهر يساير الأرض، بل يعجب بنافورة قوية تقذف الماء عاليًا في الهواء.

(٥٦) ليس ضرباً ما لا يزلزل عرش برويز وإن شق الجبل، والإشارة إلى قصة فرهاد الذي شق طريقاً في الجبل ولم يظفر بشيرين كما وعده برويز.
(٥٧) الوديل جمع وذيلة وهي المرأة، والشطر فارسي من شعر العراقي، ومعناه: احذر من كل ما يبين في المرأة «أي هذا عصر حقائق لا خيالات، ينحت الصخور ويحطم كل ضعيف فكل ما بدا في الزجاج فلا تركز إليه».

(٥٨) الموثن: معبد الأوثان.
(٥٩) الفن الهندي يعنى بالشهوات الجسمية، ويفتنُّ في تصويرها؛ فهو يوقظ الجسم، وينيم الروح، ويسخر كل شيء للأثوثة.

(٦٠) يكون في جمع من الناس وكأنه وحده، له فكره ونظره، مثل الشمعة في الحفل رفيقة الحاضرين ووحيدة بحرقتها ونورها.

(٦١) حافظ الشيرازي الشاعر الفارسي الكبير وحاتاته شعره، وبهزاد مصور فارسي مشهور عاش في أيام الدولة الصفوية، والزونات جمع زونة وهي معرض الأصنام أو الدمى، يضرب به المثل في الجمال والزينة.

(٦٢) اللحن الذي لا تنير له وجوه السامعين دليل على برود نفس المغني وخمود عاطفته.

(٦٣) لا بد للمطرب من طهارة الضمير؛ لتكون ألقانه صدى الضمير الطاهر، وإلا فأنفاسه في اللحن سم للسامعين.

(٦٤) زهور الشرق والغرب لم يهج بها الطرب فتمزق جيوبها كما يفعل من يغلبه الطرب من حزن أو فرح، يعني لم يظهر المطربون أسرار النفس، ويبدو مكنون الضمير الإنساني، ولا تزال «الذات» محجوبة.

(٦٥) رجل صيني قام أمام الجلاذ والسيف وصلت فلم يشغله هذا المقام عن الإعجاب بوميض السيف! فقال للجلاذ: أمهلني لأمتع نفسي بهذا المنظر! فهذا يعجب به إقبال أي إعجاب ويرى فيه ذاتًا كاملة.

(٦٦) الشعر يحمل رسالة من الحياة أبدية إن كان جميلًا هاديًا كنغمات جبريل (وجبريل رسول الوحي) أو كان فيه صعق وبعث كصوت إسرافيل.

الفصل الخامس

سياسيات المشرق والمغرب

(١) انقلاب

أبمشرق أو مغرب	نارُ الحياة ونورُها
فهنا تموت ذواتُها	وهناك مات ضميرُها
وأرى القلوبَ لثورةٍ	ملءُ البلاد زفيرُها
فلعلَّ دنياك القديمة	للمماتِ مَسيرُها

(٢) تملق

العنوان في الأصل «خوش آمد» وهي عبارة فارسية بمعنى مرحباً أو أهلاً وسهلاً، ومعناها بالأردوية التملق، وقد كتب إقبال هذه الأبيات حينما وضع الإنكليز نظام الاستقلال الداخلي لولايات الهند وكثرت مناصب الوزراء فيها.

جهلتُ أمورَ الناسِ غيرَ مجرَّبٍ	ولكنَّ ربَّ القلبِ للغيبِ يشهدُ
فقل لوزير ما بدا لك مادحاً	فذاذك دُستور وعهد مجدِّد
إذا قال: صقر الليل لليوم ماح	فهل ذاك حقٌّ أو دِهانٌ يردِّدُ

(٣) المناصب^٢

سِحْرُ الفَرِنِجَةِ قد أحاط بمؤمن
فَلَعْلٌ مَنْصِبَكَ الرفيع مَبَارَكُ
يا ويح عيني قد هَمَّتْ عِبْرَاتُهَا
فَالذَاتُ من جَرَاه حان مِمَاتُهَا
هَذي القَضِيَّةُ معْضِلٌ إِخْفَاؤُهَا
وَضَحْتُ لَكلِ مَفْكَرٍ آيَاتُهَا:
«لَا شَرَكَ فِي حَكْمٍ لِعَبْدٍ إِنَّمَا
شُرِّيتْ عَقُولُهُمْ وَخَابَ شُرَاتُهَا»^٣

(٤) أوروبا واليهود

إقبال توفي سنة ١٩٣٨ فهو لم يشهد حرب فلسطين ولم يَرَ تسلط اليهود على أوروبا وأمريكا كما رأينا، ولكنه نظر إلى الحوادث نظرة عارف خبير.

نظام ومالٌ وعيشٌ رَغِيدٌ
دخان المصانع في الغرب داج
وظُلْمَةٌ صَدْرُ لها القلب يَقلِّي
فَواديه ليس بأهل التجلِّي
رَأَيْتُ حَضَارَتَهُ فِي احتضارٍ
فليس غريباً تولَّى اليهود
تموت اعتباطاً، وما الموت يُمليْ
كنائسَه بعد هذا التولَّى

(٥) عبودية الأنفس

لا تخلو الأمم الذليلة من شعراء وحكماء وعلماء يسلكون مسالك شتى إلى غاية واحدة؛ هي أن يروضوا الأمة على الخضوع، ويمحوا من سجايها الإقدام حتى ترضى بالرق، هذا مقصدهم وكل تأويل في القول تحيل لهذا المقصد.

ليس يخلو زمانُ شَعْبٍ ذليل
فَرَّقَتْهُمْ مَذاهَبُ القول لكن
من عليم وشاعرٍ وحكيم
جَمَعَ الآراءَ مَقْصَدٌ في الصميم:
«عَلِّمُوا اللَّيْثَ جَفَلَةَ الظَّبْيِ وَاَمْحُوا
قِصَصَ الْأَسَدِ فِي الْحَدِيثِ الْقَدِيمِ»^٥
هُمْهُمْ غِبْطَةُ الرَّقِيقِ بَرَقَّ
كُلُّ تَأْوِيلِهِمْ خِدَاعِ عَليمٍ

(٦) الروس الشيوعيون

إن سَيرَ القضاءِ جِدُّ عَجِيبٍ
ليس يَأْلُو الصَّليبَ سَرًّا قَبِيلُ
أمر الوحي مُلحدي الروس «هُدُوا
أَيُّ سِرٍّ حوى ضَمِيرُ الزمانِ
كان يَرجو النِجاةَ بالصُّلبانِ
ما أقام القسوسُ من أوْثانِ»

(٧) اليوم والغد

مَنْ عَداه لِيَوْمِهِ في جِهادٍ
ما لَهُ الحَقُّ في مَتاعٍ وَهْمٍ
ليس أَهْلًا لِمَعْرَكِ الغَدِ مَنْ في
نورُ نَفْسٍ وشُعْلَةٌ في الكُبُودِ
يَسْتَسِرُّانِ في الغدِ الموعودِ
سيره «اليومُ» ليس بالمعدودِ

(٨) المشرق

جَبِيبُ الشَّقائِقِ من شَدوي غدا مِرْقًا
ما «مصطفى» أو «رضا» جَلَى حَقِيقَتِهَا
وَحَقُّ ذاتِي عَقَابُ غَيْرِ أَنْ لَهَا
ونَسْمَةُ الصَّبَحِ رَوْضًا تَطْلُبُ الْآنَا^٦
فالروح في المشرقِ جِسْمًا تَطْلُبُ الْآنَا^٧
ذا العَصْرِ جِذْعًا وَحَبْلًا يَطْلُبُ الْآنَا^٨

(٩) سياسة الإفرنج

يا رب نَدِّكَ في غَرِبِ سياستِهِ
خَلَقْتَ إبليسَ فَرْدًا من لظى لَهَبٍ
وما تَعَبَّدَ إلا الهامَ والرُّوسا^٩
ومن تُرابٍ أَقامتْ أَلْفَ إبليسِ

(١٠) العبيد ...

تعلمتُ بين الغرب والشرق حكمةً
فلا ملك أو فقراً ودينًا وحكمة
فإما خلا منها ضميرُ جماعة
أراها لأهل الرقِّ أجدى الفوائد:
يؤسس إلا فوق صخر العقائد
فأفعال رعديد وأقوال هامدٍ

(١١) إلى أهل مصر

من أبي الهول أتنني نكتة
بدلتُ سيرَ شعوب جملةً
طبعها في كل عصر مائلٌ
فهي طورًا في حُسام المصطفى
وأبو الهول طوى السرَّ القديم^{١٠}
قوةً لم يَجْفُها العقلُ الحكيم
يُبدلُ الشكلَ ويبقى في الصميم
وهي طورًا في عصا موسى الكلم

(١٢) الحبشة (١٨ آب سنة ١٩٣٥)

عقبانُ أوروبًا بغير علم في جيفة الأحباش أي سم!
قد آن للميتة أن تجيفا
حضارةٌ تكملُ بالمخزاة وعيشُ أقوام على الغارات
وكلُّ ذئب طاردٌ خروفا
وجهُ الكنيسة اكتسى شنارًا روما أراقت ماءه نهارًا
يا بابُ قد أضحى الورى أسيفاً^{١١}

(١٣) أوامر إبليس إلى أبنائه الساسة^{١٢}

يصور الشاعر في هذه الأبيات عمل الساسة بأوامر أبيهم إبليس، وإنما يأمرهم بإبعاد أهل الأديان كلها من الدين ولا سيما المسلمون، هؤلاء الصابرون المستميتون، وقد خص العرب الذين نشأ الدين في حضانتهم، والأفغان الذين تسيطر عليهم حمية الدين إلخ. ثم أوصاهم بإخراج إقبال من الروض؛ لأن نفسه يشعل الحقائق أي يثير النار في الشباب فيبعدهم عن سياسة إبليس.

عليكم بالبرّهمن فارپكوه	بأشراك السياسة والحبال
وأصحاب الزنانير اطردهم	من الدّير القديم بالاحتيال
وذلكم الصبور على الرزايا	ومن هو بالمنايا لا يبالي ^{١٣}
فروح محمد منه اسلبوه	لتعمل فيه أحداث الليالي
وفي العرب اقدفوا في كل فكر	من الإفرنج ألوان الخيال
بأرض العرب للإسلام كيدوا	ليُسرّع في الحجاز إلى الزوال
وفي الأفغان بالدين اعتصام	وليس علاج هذا بالمحال
عليكم بالفقيه فأخرجوه	من الأرض المنيعه والجبال
وقوأمًا على الحرّم اسلبوهم	لهم سُنًا تحيد عن الضلال ^{١٤}
غزال المسك من ختن أثيروا	وخلّوا الأرض من هذي الغوالي ^{١٥}
واقبال له شدوّ مثير	به زهر الشقائق في اشتعال
من المَرَج اطرّدوا هذا المغني	لتحموا الناس عن هذا المقال

(١٤) جماعة الأمم الشرقية^{١٦}

سُخّر الماء والهواء مسخّر	ليس بدعًا إن القضاء تغَيّر
جبروت الفرنج غرّته رؤيا	علّها غير ما رآه تُعبّر
إن جنّيوًا للشرق طهران صارت	فلعلّ التبديل للأرض يُقدر

(١٥) الملك الخالد

إني لَغَوَّاصُ المعاني فِطْرَةً
لكنني بَحَرَ السياسة أَحْذَرُ
ما إن يُحِبُّ الدهرُ مُلْكًا خَالِدًا
ولو أنَّ فيه من الرُّؤى ما يسَحَرُ
فَرَّهَادُ أبقي الدهرُ نَحْتَ صخوره
لم يَبْقَ من پرويزَ مُلْكُ يُؤَثَّرُ

(١٦) الجمهورية

بدا السر في قولةٍ من أريبٍ
نظام الجماهير حُكْمُ به
وما كان من قَبْلِهِ يُعْلَنُ: ١٧
تُعَدُّ العِبَادُ ولا تَوْزَنُ

(١٧) أوروبا وسوريا

أهدت الشام إلى الغرب نبياً
ومن الغرب إلى الشام هدايا
هو عَفٌّ ومُواسٍ وصَبور
من قمار ونساء وخمور

(١٨) من موسوليني (إلى أُنْداده في المشرق والمغرب)

أرى العصر يَأْبَى من مُسولينَ جُرْمَهُ
كلانا بآلات التمدنِ أَخَذُ
وقد نَقَمُوا مِنِّي غرامَ تَمَلُّكِ
أما ثار منهم بالضعافِ ضِرابُ
لِمَنْ شَعْبَذَاتُ الحكمِ تُبْقِي مَمَالِغًا
ولا مُلْكٌ أو مُلْكٌ بهنَّ يُصَابُ
أَيَنْفُخُ في الأعوادِ أبنَاءُ قَيْصِرٍ
ويُجَبِّى إليكم عامر وبيباب^{١٨}
نهبتم خيامَ البدو والزرعَ والقرى
وكم كان منكم للعُروشِ نِهَابُ

قَصَدْنَا مِنَ التَّمِيدِينَ قَتْلًا وَغَارَةً أَمْسُكُمْ فَخْرٌ وَيَوْمِي عَابُ؟!

(١٩) شكوى

مستقبل الهند من يدري؟ وما برحت
دهقانها من ظلام اللحد مطرُحُ
الجسم والروح للباغين قد رُهِنا
رضيت رَقًا لأوروبا بلا أَنْفٍ
يا ويحها، درَّةً في التاج تُرْتَهَنُ^{١٩}
ولم يزل مِرْقًا تحت الثرى الكفن
لم يَبْقَ في أرضها دار ولا سَكَنُ
فمنك شكواي لا منها، وبى حزن

(٢٠) انتداب

مَلِكُ الحضارة أين يُحْتَم سِيرُهُ؟
في حيثُ لا خمرٌ ولا قَمَرٌ ولا
والروحُ في بدنٍ قويٍّ خافقُ
حيثُ المدارس غائضٌ ينبوعها
يُفتي جهابذة الفرنجة أنما
في عصرنا هذا السؤال يسيرُ:
ضيقُ الثياب على النساء يجور
لكن على سَنَنِ الجدود يسير
وابن البداوة في الذكاء جَسور
هذي البقاعُ من التمدُّن بُورُ^{٢٠}

(٢١) السياسة اللادينية

ما الحقُّ مخفٍ عن فؤادي سرِّه
فسياسة اللادينِ عندي خِسةٌ
لَمَّا قَلَى حُكْمُ الفرنج كنيسةً
شَرِهَتْ لأموال العباد كنيسةً
فلقد حبانى الله قلبًا مُبصرًا
مات الضميرُ بها وإبليسُ افترى^{٢١}
ساسوا كشيطان بلا قيد جرى
فإذا الخَميسُ سفيرُها بين الورى^{٢٢}

(٢٢) شبكة التمدين

أمانتُها علَتْ عن كل ريب
فأوروبا نصيرة كل شعب
كرامات القساوس أن أضاءوا
ولكن من فلسطين بقلبي
وتلكم عُقدة ليست لحل
من الترك الجُفأة نجوا فلاقوا
وإقبالٌ مُقَرٌّ دون نُكرٍ
تشكى الدهر من ظلم وضرٍ
سراج الكهرباء بكل فكرٍ
وللشام الكسيرة حرٌّ جمرٍ
تُلاقى كل تدبير بعُسرٍ
بأشراك التمدن شرَّ أسرٍ^{٢٣}

(٢٣) نصيحة

قال لُزْدُ من الفِرْنَج لَنَجِلٍ
أظلم الظلم للمساكين إعلام
إنَّ للملك سرَّه فاكْتُمْنَه:
وبجمض التعليم فاغمس نفوساً
أين منه الإكسير؟ هذا محيلٌ
أبغ مرأى يدوم فيه المراد^{٢٤}
خِرافٍ شريعة الآساد^{٢٥}
لا تَرُم بالسيف قهر العباد
نمَّ صُغ طينها وفاق المراد
جبل التبر كومة من رماد

(٢٤) قرصان وإسكندر

إسكندر:

جزاؤك في سلاسلك ارتهانٌ
فقد صيرت وُسْعَ البحر ضيقاً
أو التصميم من سيفي العتيق^{٢٦}
بما أمعنت في قطع الطريق

القرصان:

سَكنَدُرُ! للفتوة لم تَوَفَّقْ
فإنَّ القتل دأبي لا أماري
كلانا اليوم قرصان: بَبْرُ
أيجملُ بالفتى فَضَحَ الرفيق؟
كذاك القتل دأبك يا صديقي
تَصُول، وَصَلْتُ في بحر عميق

(٢٥) عصابة الأمم^{٢٧}

مَسْكِينَةٌ منذ زمان تُحْتَضَرُ
وموئها محتَّم لكنَّما
عجوزُ أوروبا يجوز عيشُها
لا فاهَ مِقُولِي بَسِيئُ الخَبرِ^{٢٨}
يدعو القسوس أن يزولَ ذا الخطر
على رُقَى إبليس أياماً آخر^{٢٩}

(٢٦) الشام وفلسطين

مَرَحَى لحانات الفرنج فقد
إنَّ في فلسطين اليهودُ رَجَتْ
للإنكليز مقاصدُ خفيت
ملأت بهنَّ زجاجها حَلْبُ
فلْيأخذنَّ إسبانيا العربُ
ما إن يُراد الشَّهد والرُّطب^{٣٠}

(٢٧) أئمة السياسة

ما رجائي بساسة قد أَسْفُوا
نظراتُ إلى دُباب ونملٍ
حبذا الركبُ قد هداه أمير
وإلى الأرض أخلدوا إدراكا
فهُم العنكبوت مدَّت شباكا
نُو مرامٍ تُجاوز الأفلاك

(٢٨) نزعات العبودية

بأسبابٍ سُقمِ الشعوبِ خَفَاءَ يقصّر في شرحهن البيان:
بشرع الأسود إمام العبيد يرى دائماً حِكْمَةَ الثُّعْلَانِ^{٣١}
كَلِيمُ الإِلهِ يُرَى لَعْنَةً على قومه في خُطوب الزمان
إِذَا كَانَ فِي السَّرِّ هَذَا الْكَلِيمُ لِقُوَّةِ فِرْعَوْنَ طَوْعَ الْبَنَانِ

(٢٩) صلاة العبيد

جاء إلى لاهور وفد من الهلال الأحمر التركي، فصحبهم إقبال في صلاة بالمسجد الكبير فأطال الإمام الصلاة فسأل أحد رجال الوفد: لماذا يطيل الصلاة إمامكم هذه الإطالة؟! فكتب إقبال هذه الأبيات:

قال بعد الصلاة حِلْفُ جِهَادٍ: كم يطيلُ الصلاةَ فيكم إمامُ
ما درى ذا المجاهد المؤمن الغرَّ صلاةَ العبيد كيف تُقَامُ
كم لدى الحرِّ في الحياة كَفَاحُ غَيْرَةُ الحرِّ للشعوبِ قِوَامُ
حَرِمَ العبدُ حرقةَ الكَدِّ عَجْزًا فعلى وقته المُضِيِّ حَرَامُ
لا تَعَجَّبْ إِذَا أَطَالَ سَجُودًا ما لديه سوى السجود مُرَامُ
رَبِّ وَفَّقْ أُمَّةَ الهندي يوماً لسجود تحيا به الأَقْوَامُ

(٣٠) إلى عرب فلسطين

لا يزال الزمانُ يَصَلِّي بنار لم تزل في حَشَاك دون خمود^{٣٢}
لا دواء بلندن أو جنيوا بوريد الفرنج كفُّ اليهود^{٣٣}
ومن الرقِّ للشعوب نَجاةٌ قوَّةُ الذاتِ وازدهار الوجود

(٣١) الشرق والغرب

علّة الشرق ذلة واقتداءً ونظامُ الجمهور في الغرب داءٌ
مرضُ القلب والبصيرة فاشٌ ما بِشَرْقٍ ولا بِغَرْبٍ شفاء

(٣٢) نزعات التسلط (إصلاحات)

أرى رحمةَ الصياد سِتْرًا لقهره ولم يُجدِ فينا ذا الصغيرُ المجدد^{٢٤}
وقد زَيْنَ الأقفاصَ بالزهر ذابلًا لعلَّ أسيّرًا للإسار يُغَرَّد

هوامش

- (١) إذا قال أحد المادحين للبومة وهي لا تطير إلا ليلاً: إنها صقر الليل؛ فهل هذا حق، أو ملق؟
- (٢) هذه الأبيات قيلت في الأحوال التي أنشئت فيها الأبيات السابقة.
- (٣) الأمم المحكومة لا يمكن أن تشارك حاكميها في الحكم مهما وضعوا لها من نظم. شريت: بيعت والشراة البائعون.
- (٤) تموت في شبابها، والموت لا يمهل.
- (٥) في هذا البيت مقصد القائلين المذكورين في البيتين السابقين.
- (٦) أنا شدوت حتى مزقت شقائق النعمان جيوبها وجداً، ونسيم الصباح لا يزال يطلب روضاً ينضر أزهاره.
- (٧) لا مصطفى كمال ولا رضا بهلوي كان مظهرًا لروح الشرق فهي تطلب الآن بدناً تظهر فيه.
- (٨) وذاتي تستحق العقاب بما دعت الناس إلى اليقظة والحرية، ولكن العصر لا يزال يطلب حبلاً وجذعاً؛ ليصلبني، ليس قادراً على صليبي.
- (٩) الرؤس أي الرؤساء، أي لا يعبد هذه السياسة إلا رؤساء أوروبا وحكامها.
- (١٠) أبو الهول: رمز العقل والقوة، رأس إنسان على جسم أسد.

- (١١) يعني البابا رئيس الكاثوليك.
- (١٢) كتبت في شيش محل، دار أمير بهوبال.
- (١٣) نلكم الصبور إلخ يعني المسلم.
- (١٤) يريد بقوام الحرم من تولى هداية المسلمين إلى دينهم في الحرم وغيره.
- (١٥) بلاد ختن في تركستان كانت معروفة بمسكها، وغزال ختن مشهور في الشعر الفارسي وما يتصل به.
- ويريد الشاعر: أخلوا الأرض من المعاني الجميلة التي تعطرها، أي أخلوا بلاد المسلمين من السنن القويمة والآمال العالية.
- (١٦) كتبت في شيش محل «دار أمير بهوبال».
- (١٧) ستندل.
- (١٨) يشغل أبناء الرومان بالزمر والموسيقى وغيرهم يملكون الأرض ويضربون الخراج حتى على الصحاري.
- (١٩) كان الإنكليز يقولون: إن الهند أثمن درة في تاج الإمبراطورية.
- (٢٠) حيثما وجد الناس على الأخلاق القويمة والفضيلة السليمة قال الفرنج: هذه الأرض في حاجة إلى التمدن! فأرسلوا إليها ملك التمدن باسم الانتداب.
- (٢١) إبليس افتراها.
- (٢٢) الخميس: الجيش.
- (٢٣) في هذا استهزاء: يقول: إن أوروبا ادعت أنها أنقذت الشام وفلسطين من قسوة الترك، ولكنها أوقعتهم في شر أسوأ.
- (٢٤) اطلب المنظر الذي لا تنتهي منه العين، أي المطمع الذي لا يحد.
- (٢٥) أظلم الظلم أن تعلم الغنم سيرة الأسد، أي تعلم الأمم الذليلة طريق الحرية والقوة.
- (٢٦) صمم السيف أصاب المفصل فقطعه.
- (٢٧) العنوان في الأصل: جمعيت أقوام.
- (٢٨) يعني لا أود أن أخبر بموتها.
- (٢٩) الظاهر أن الشاعر نظم هذه الأبيات حينما كانت عصبة الأمم في آخر سنواتها.
- (٣٠) بلاد العرب كلها معروفة في الهند بالنخل، ويقول الشاعر: ليس قصد السياسة الإنكليزية ما تعلن من عمران البلاد بل لها مقاصد خفية.

(٣١) أسباب مرض الأمم أئمة أذلة يرون في شريعة الأسود فلسفة الثعالب، كالذين حادوا بالمسلمين عن شريعة الحياة والقوة إلى مذهب الخنوع والاستكانة. والحكمة هنا الفلسفة، والثعلبان الثعلب الذكر.

(٣٢) يعني أن النار التي سرت في الزمان من تاريخ المسلمين لا تزال في نفس المسلم لم تخدم.

(٣٣) يعني يقبض اليهود على وريد أوروبا.

(٣٤) يقصد الشاعر ما دعاه الإنجليز إصلاحًا حين جعلوا للهند نوعًا من الحكم الداخلي، يقول: ما يزال الصياد قاسيًا وإن تظاهر بالشفقة ولا يرققه أن تجدد له غناء، وإنما همه أن يرضي الأسير فهو يزين الأقفاص بزهور لا نضرة فيها لعل الطائر يرضى بقفصه.

الفصل السادس

أفكار محراب جل الأفغاني

للشاعر بالأفغان إعجاب؛ لقوتهم وبسالتهم، واعتزازهم بجالهم، وحميتهم الإسلامية. وقد تخيل أن شاعرًا منهم اسمه «محراب گل» أنشأ هذا الشعر الذي في الصفحات التالية، يبين عما في نفوس هؤلاء الناس وما في معيشتهم كما يريد إقبال ...

١

يا جبالي أَيَّانَ عنكَ المَسيْرُ	وترابُ الآباءِ هذي الصخورُ؟!
لا زهورٌ ولا صدى عندليبٍ	فيكَ منذ الأزال تأوي الصقور
جنّتي فيكَ مَحْرَمٌ وشعاب	ماؤك النُّور، والترابُ العبير
لن يكون الشاهينُ عبد بُغاثٍ	أَلحفظ الأبدان رُوحِي أُبِير
خلعة الإنكليز أم سُحْقُ ثَوْبٍ	إيه فقري الغيور! ماذا تشير؟

٢

تَنافَرُ الناس دائِمٌ أَبَدًا	لستُ ولا أنتُ القضاء فَصَلَّهْ
في الذاتِ غُصٌّ، للزمانِ ذا أَمَلٌ	دواؤُه في الجروحِ أَرْسله
تَبقى على الدهرِ واحدًا بطلًا	إن كان في القلبِ «لا شريك له»

٣

يجوز أن تُبدل أنت، لا تَحُلْ
إذا سرى في ذاتك انقلابها
بدعوة أن القضاء يُبدل
يبقى الشراب والغناء إذ ترى
فجائز أن الفضاء يُبدل
تدعو بتحقيق الرجاء جاهداً
رسم «السُّقاة» والإناء يبدل
ودعوتي أن الرجاء يبدل

٤

وما فلك جائرٌ في السَّيَرِ
أرى ركبها جاهداً في المسير
وأقعدُها طولُ هذا السَّفَرِ
سَكَنَدَرُ زَمْجَرٍ كالرعد حيناً
وعاثت بدهلي يدا نادر
وتبقى الجبالُ وأفغانها
تُذَلُّ الحوائجُ صيدَ الرجال
لِكَذْبِ الذَّاتِ أَيْدِهَا فَقَرَهَا
فَعَنْدِي وَعِنْدَكَ مُلْكُ الْبَشَرِ
إِلَى سُدَّةِ الْمُلْكِ مَا إِنْ نَظَرَ
قَوَامُ الشُّعُوبِ بَحْرٌ فَقِيرٌ

٥

مدارسُ ثم ضوضاءٌ ولهوٌ
وسمُّ الحر هذا ليس علماً
وَمَا أَدَبٌ وَفَلَسَفَةٌ غِنَاءٌ
تَحْكَمُ فِي الطَّبِيعَةِ رَبُّ فَنٍّ
فَرَبُّ الْفَنِّ مِنْ بَرَكَاتِ فَنٍّ
وَذَلِكَ إِنْ يَشَأْ قَطَرَتْ عَلَيْهِ
وَعَمٌّ دَامَ فِي الْعَيْشِ الْوَفِيرِ
إِذَا كَانَ الْجَدَى كَفَّ الشَّعِيرُ
قَوَامُ الْفَنِّ فِي جَهْدِ الْمَسِيرِ
يُضِيءُ اللَّيْلُ كَالصَّبْحِ الْمُنِيرِ
يَطْوَعُ لِحْكَمِهِ كُلُّ الْعَسِيرِ
أَيَّاهُ الشَّمْسُ كَالطَّلِ النَّضِيرِ

٦

عالم التجديد إن يظفر بحرٌ موجدٌ من حوله طاف الزمانُ
لا تدعُ ذاتك بالتقليد لغواً جوهرٌ فردٌ فحطه بصوانُ
بارك التجديدُ قومًا ليس فيهم غيرَ حفلِ الأمس، ذكرى وعيانُ
خشيتي أنْ وغى التجديد في الشر ق على التقليد للغرب دهانُ

٧

تبدّل الأقوامُ في البلدانِ في الروم والشام وهندستان
يا ابن الجبالِ هُبْ للزمان وأدركنْ ذاتك بالعرفانِ
ذاتك بالعرفانِ
يا غافل الأفغان
ذا موسم وماؤه غبابٌ وعسجدًا يُنبِتُ ذا الترابُ
من لم يروُ زرعه احتساب فكيف يُدعى الغرُّ بالدهقان
ذاتك بالعرفانِ
يا غافل الأفغان
ما لم يهج في موجه الزخارِ فأَيُّ بحر ذاك في البحار؟
ما ليس فيه ثورة الإعصار فكيف يدعى عاصفُ الأكوان
ذاتك بالعرفانِ
يا غافل الأفغان
من اهتدى ونفسه أصابا مقلَّبًا في طينه الترابا
فحرثُ ذا العيد الذي قد طابا يُفدى بكل الجاه والسلطان
ذاتك بالعرفانِ
يا غافل الأفغان
جهلك هذا ما به من عارٍ قد صيرَ الجهلُ من الفخار

كم عالمٍ فاضلٍ مماري متاجرٍ بالدين والإيمان
ذاتك بالعرفان
يا غافل الأفغان

٨

يدّعي الزاغُ أن ريشك قُبِح
ما رُذال البُغاثِ يا صقرُ! تدري
ويقول الخفاش: أعمى جهول
كيف تدري بحال طائرٍ عزمٍ
في عَنان السماء كيف تصول
كله في المطار عينٌ تجول

٩

لا يَسْفُ العشْقُ دأبَ الهوسِ
ربّ روض حال حتى ليرى
بذبابِ بازيّا لا تَقِسِ
مُزَمَّعُ الأسفار لا يبغي صدّي
عندليبٌ عشّه كالْمَحِيسِ
أترى قافلة الموج لها
من أذان برحيل الغلسِ
خدعَ العينَ فتى مدرسةٍ
في مسير حاجةٍ بالجرَسِ
فبدت فيه حياةُ الأنسِ
وهو مَيّتٌ ومن الغرب اجتدى
ما سرى في صدره من نفَسِ
إن تُرد تربيةَ القلبِ فَمِنْ
نظر المؤمن شَرُّراً فاقبِسِ

١٠

سواءُ عيونِ عِثْرتهِ فَتَيّ
يُرى في السلم ظليّاً ذا جمالٍ
حليفُ طهارةٍ وفَتى ضرابٍ
به نار تُحَرِّقُ كل شيءٍ
وفي يوم الكريهة ليثٌ غاب
وحَسِبُ الغاب من شَرِّ الثُّقَابِ

حباه الله أبَّهة ومُلْكًا بفقرٍ حيدرٍ واحتساب
سبيلُ التاج حسر الرأس منه فلا تنظر إليه بارتياب^٦

١١

في بارحاتك لألآت أنواره يسطيع نورًا ذا السراج الخابي^٧
يشكو الضعيفُ من الزمان صُروفه والحرُّ فيه باسمٍ لحِراب
من صوت طير الصبح يدَّهشُ ذا الفتى أتراه أهلَ تطاعنٍ وضِراب
حذري لأنك في طباع طفولة والغربُ تاجر سُكَّرٍ وجُلاب^٨

١٢

بلا دينٍ ولا تينٍ هوتُ في الفخِّ رجلاه^٩
دواء العاجز المغلوب «لا غلابَ إلا هُو»
وصيَّادُ المعاني ما رَجَتْ في الغرب عيناه
فضاءٌ مونيُّ لكن غزالُ المسك خلَّاه^{١٠}
يقومُ ذاته سَحَرًا بدمع العين أوَّاه^{١١}
فهذا الزَّهر أحسنُّه على الأمواه تلقاه
وَدِير الكون، زُونُ الريد ح والألوان معناه^{١٢}
على الكُفار مُستَوِلٍ وذو الإيمان موله
إمامَ المسجد! امنعه أميرًا حين يغشاه
زوى المحراب حاجبه ولم تُعجبه تقواه^{١٣}

١٣

دنياك في عينيَّ شَيءٌ آخَرُ أنى لعينك - ليت شعري - تَظْهَرُ
ماذا التَّقَلُّبُ في عقولِ شبابنا في كل صدر قد تبدَّى مَحْشَرُ
شيخَ المساجد! ما دُعَاؤُكَ سُحْرَةٌ أبه الحياةُ بلا جهادٍ تَظْفَرُ^{١٤}
ما «الذات» يُرجى في رِباطٍ خَلَقَهَا هل للشارار من الرماد تَسْعُرُ^{١٥}

١٤

كل عشق دون إقدام هوى ويد الله بعشق مخطر
ويلتا من ترف! أين فتى تَخِذَ الأهوالَ زاد السفر
خَلوةُ الأطواد ليست وَحْشَةً يعرف «النفس» بها ذو البصر

١٥

عِلْمُ فقرٍ لسالكٍ غيرُ صعب حَدَّثَ الناسَ عن هُداه الضميرُ
لا يكونُ الفولانُ جوهرَ سَيْفٍ إن يكن في الطباع منه حرير
إنَّ قَهرَ الإله فقرٌ ذليلٌ وسبيل السلطان فقرُ غَيورُ
قد سباك الفرنجُ نفسًا ولكن أنت يا مؤمن البشير النذير^{١٦}

١٦

مَوْتُ الشُّعوبِ بُعْدُهَا عن جَذَبَاتِ المركزِ
والذات إما رُكُزَتْ فللمعالي تُركِزِ

فقر تراه شاكيًا	جور الزمان اللحز
باق عليه مسحة	من اجتداء الكَزِز
ولم يزل ميسّرًا	للبرّ فعل المعجِز
أن يجعل الصخور كالذ	رأت غير مُعَجِز ^{١٧}
فأين يا مؤمن أنت	اليوم لم تُبَرِّز
ما في جهاد لذة	جَمَرُك فيه مُعوزي ^{١٨}
يا شمس من سراق الـ	مشرق هيّا فابُرْزي
واكسي جبالي حُلَّة	تُزهى بلون القرمز

١٧

إن يكن في الألوف ربّ يقين	نفخ النار في شباب وشيب
ربما تنشئ الصحاري فقيرًا	يخلق الدرّ من حصّى في الجيوب ^{١٩}
بيراع لك اكتبنّ لك حظًا	لم يخطّ الجبين ربّ الغيوب ^{٢٠}
ذا الفضاء الذي يُسمّى سماء	ليس شيئًا لدى العُقَاب النجيب
هو فوق الرءوس يدعى سماء	وهو أرض تحت الجناح الهُبوب

١٨

أي قول لشيرشاه رشيد:	في اختلاف القبيل ذلّ العبيد ^{٢١}
خلعوا ثوب أمة جمعتهم	وازدهوا بالوزير والمحسود ^{٢٢}
ذهب الدين في الجبال شعاعًا	كل حزب لبّده في سجود ^{٢٣}
حَرَمٌ فيه حُرمة اللات ترعى	فحبك المولى بضرب سديد ^{٢٤}

ليس الذي يُدرك الألوانَ بالبصرِ
يا مؤمناً قد شأى الإفرنج منزلةً
وحانةُ الغرب للصادي مفتحة
لك المماتُ بهذا السكر مُستترٌ
هل يسمعنُ بنو الخانات موعظتي
بل مُعَنِّ عن ضياء الشمس والقمر^{٢٥}
تَقْدَمَنَّ. ليس هذا مُنتهى السفرِ
ما السكر فيها بعلم العصر بالنُّكرِ
إن لم يكن فيك للتوحيد من شَرِّ^{٢٦}
في شملة لست ذا تاج ولا سُرُرٍ؟^{٢٧}

مقاصد الفطرة العلياء يحفظها
يراقب السُّحرَ في التمدين يُبطله
للحسن واللفظ صاغَ الروضُ بلبله
يا شيخُ كم تُعجبُ الأبصارَ مدرسةً
هل يعرف الدهر للإسلام من شبه
مَنْ عاش في البيد أو في الطود إنسانا
في فقره أودع الخلاقُ سُلطانا
وتُنشئُ البيد للأقدام عِقبانا
لكنَّ في البيد فاروقاً وسَلْماناً^{٢٨}
في نشوة تتحدَّى السيف غضبانا

هوامش

- (١) نادر شاه ملك إيران وأفغانستان، فتح دهلي وتوفي سنة ١١٦٠هـ.
- (٢) العلم الذي جدواه كف من شعير أي متاع قليل، ليس علماً ولكن سماً للأحرار.
- (٣) الفن بالجهد المستمر لا بالأدب والفلسفة.
- (٤) رب الفن إن شاء قطرت عليه آية الشمس (أي شعاعها) كالندى فجعلها مادة فنه ...

- (٥) التجديد بركة لقوم لا يذكرون ولا يرون إلا صور الماضي.
- (٦) وهو حاسر الرأس ولكنه طموح إلى التاج، أو هو في همته وعزته كصاحب التاج فلا تحقره بأنه حاسر.

- (٧) هذا السراج الخابي هو الذي أضاء لك البارحة فهو أهل لأن يضيء مرة أخرى،
يعني الإسلام.
- (٨) يخاف على المسلم أو الشرقي؛ لأن فيه طبع الطفل يحب السكر والجلاب،
وأوروبا تحسن التجارة بهما، فهو يتهافت على تجارتها.
- (٩) يشير إلى مصطفى كمال واتباعه سياسة لادينية، واتخاذ الحروف اللاتينية
للغة التركية.
- (١٠) لا يجد صياد المعاني في أوروبا غزلاً مسكياً يصيده، فإنما هي فضاء لا
صيد فيه، أي لا يجد المعاني الجميلة التي يحبها.
- (١١) الأواه: المتعبد الرقيق كثير الدعاء.
- (١٢) هذا العالم الذي هو معرض لأصنام من الألوان والروائح، يستعبد الكفار
ولكنه مسخر للمؤمن.
- (١٣) تخيل زاوية المحراب تقطيباً لصلاة أمير ليس فيها معنى الصلاة.
- (١٤) في الأصل شيخ الحرم، والمراد به المساجد عامة.
- (١٥) الرباط مقام الصوفية، وفي الأصل خانقاه.
- (١٦) جاء هذا المصراع في الأصل بالفارسية.
- (١٧) لا يحول دون همة الحر شيء من عالم المادة؛ فهو يحيل الصخور ذرات فلا
تكون في طريقه عقبات.
- (١٨) ليس في الجهاد لذة ما لم تكن فيه حرارة الإيمان، وجمر المؤمن يفتقد اليوم
في الجهاد.
- (١٩) الجيوب وجه الأرض، وهو يشير إلى الرسول صلوات الله عليه وسلامه.
- (٢٠) اكتب حظك بقلمك فالله تعالى لم يكتب على جبينك مستقبلك كما تزعم.
- (٢١) شيرشاه أحد أمراء الأفغان.
- (٢٢) الوزيري والمحسود من قبائل الأفغان في إقليم الحدود من باكستان.
- (٢٣) البد: الصنم.
- (٢٤) هذا حرم ولكن فيه أصنام، فالله يوفقك لضرب تكسر فيه الأصنام كما كسر
الرسول أصنام الكعبة.
- (٢٥) ليس بمبصر الذي يرى الألوان، بل ما أدرك الحقائق والأسرار التي لا يحتاج
في رؤيتها إلى الشمس والقمر.

ضرب الكلم

- (٢٦) لا ضير في أن تأخذ علوم العصر وتنتشي بها ولكن الهلاك فيها أن تغفل بها عن الإيمان والتوحيد.
- (٢٧) الخانات جمع خان، ومعناه الأمير، يعني يسمع هؤلاء الأمراء قولي وأنا في ثياب خشنة لست ملكًا ولا أميرًا.
- (٢٨) يعني الأصحاب الكرام مثل عمر الفاروق وسلمان الفارسي.

